فرقاء العلم والفلسفة

أ.د. أحمد عبد الهادى

تصميم الغلاف: هاجر محمود

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر: دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج. م. ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

تقديم الأستاذة الدكتورة/ سميرة سالم[1]

مؤلف هذا الكتاب العالم المفكر أحمد عبد الهادى الذى قرأت له العديد من مؤلفاته المتميزة فى مجال تبسيط العلوم، واختياره الموفق فيما يتعلق من موضوعات علمية معاصرة بأسلوبه البسيط الرصين، وإضافة إنتاجه بالغ الأهمية إلى المكتبة العربية المتعطشة لمثل هذه الإضافة.

بعد أن كتبت مقدمة هذا الكتاب فى نبذة مختصرة شاملة، تناولت مضمون أبواب الكتاب، وجدت أنه من الأحرى ألا أتناول فى المقدمة ما ذكره الكاتب صراحة وشرَحه ووثقه، بل أتناول ما لم يخطه المؤلف بصراحة ووضوح، أى صيغت أفكاره فى شكل تلميحات، وأحيانا نستشفها من بين أسطر هذا الكتاب، ودمجه للأحداث السياسية والثورات المجتمعية فى حياة وكيان وفكر العلماء والفلاسفة المفكرين فى مجتمعاتهم، وردود الأفعال التى تعرضوا لها جراء علمهم وفكرهم من تكفير ومهانة فى العصور الوسطى المظلمة، مع تتبع ما وصلت إليه هذه المجتمعات فى مختلف المستويات، بتأثير أفكار علمائها ومفكريها من نمو وارتقاء وتطور. ومقارنة ذلك بالحراك الشعبى والفوارن الذى خاضته مصر فى ثورة يناير ٢٠١١ فى ظل ثورات الربيع العربى أو كما يطلق عليه أيضا الخريف الإسلامى. وهل استطاعت

(١) الأستاذ بكلية العلوم ومقرر لجنة الثقافة العلمية بالمجلس الأعلى للثقافة الأسبق.

هذه الثورة التخلص من التراث البالى المزق المهلهل المسيطر على النظم والقوانين الراسخة فى الإدراك والمفاهيم؟.

يتتبع المؤلف العلاقة الوطيدة بين الحضارة الإنسانية ومسيرة الإنسان على مر العصور، وفى كل مناحى الحياة، وكيف تفجرت المسلسلات المتتابعة من ثورات كالثورة الزراعية، والثورة الصناعية وخلافه من الثورات التى أدت إلى سن القوانين والتشريعات ومجالس ومؤسسات مثل مجلس الأمن ومحكمة العدل الدولية، ولجنة حقوق الإنسان، وخلافه من المؤسسات. وما حققه العديد من الفلاسفة والكتاب والأدباء عاملين جاهدين لنهضة بلادهم والارتقاء بها متحملين الجهد والعناء، ويذكر من بين هؤلاء الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر ونظرية الوجودية والحرية المطلقة للإنسان حتى أنه أثر فى معظم أدباء وفلاسفة عصره، ولإيمانه الشديد بأن «السلام هو الحرية» فكان له الفضل العظيم فى تحرير الجزائر، رغم أن ذلك كان ضد وطنه المستعمر.

وأيضا رأى العالم المفكر أ.د أحمد شوقى وتحليلاته العلمية الفلسفية التى طرحها فى كتابه «هندسة المستقبل» ورؤيته لإنسان هذا القرن وكيف يتم تحويل البشرية إلى الإنسانية العاقلة وهو يدعو للخير والحق والجمال لاعتلاء هذا الإنسان العاقل العالم الجديد المنشود. وكذلك نظرة الكاتب يوسف إدريس الثاقبة داخل النفس البشرية المجهولة. ويستعرض المؤلف كذلك أفكار وآراء العديد من الفلاسفة والمفكرين ليلقى الضوء ويبرز أسباب التخلف والانحدار لتصل إلى أغوار بلا قرار للعالم العربى، وكيف أن تلك المجتمعات تحتاج إلى فكر جديد، وعقل جديد، ونمط من الحياة جديد، والقضاء على الجهل والتخلف والأفكار البالية، والعقول المعطلة الموجودة

داخل رءوسنا والمتحكمة فى مجتمعاتنا ولا يحقق ذلك إلا بالتسلح بالعلم والمنهج العلمى فى إدارة شئون مستقبل الأمم.

فى حياة كل شعب مرحلة أو مراحل تسودها وتهيمن عليها إرادة التغيير، ومن هذه المراحل تبدأ المسيرة لإعادة بناء تلك الدول والشعوب القادرة على تغيير واقعها وخلق ظروف أفضل لعيشها. وهنا يبرز دور العلم كعنصر ضرورى ولازم لتوجيه إرادة التغيير وفق ضوابط محكومة وهادفة. ولا يمكن لأى مجتمع أن ينمو وأن يتغير إلا على أسس علمية وموضوعية وواقعية تتناسب مع برنامج التقدم والتنمية التى هى بلا شك نسيج متكامل مترابط يخطط له ويحكم خيوطه العمل العلمى، فالعلم هو السبيل الوحيد المأمول الذى لابد أن تعبر من خلاله كل الأعمال فى مختلف المجالات؟.

ويتميز العلم بكونه جهدا منسقا للعلماء فى جميع دول العالم، حتى استقر القول بأن العلم لا وطن له، فهو نتاج الفكر الإنسانى لصالح البشرية أيا كان موقعها، وإن كان هذا منطق العلماء إلا أن حقائق العصر تطوى فى خباياها الكثير من الأمور التى ترتبط بمصالحها الاقتصادية والأمنية والاجتماعية، والتى تتجسد فى المنهج العلمى السليم وتطبيقات التقنية المناسبة والمطلوبة الفعالة والمصيرية لكل دولة وخاصة الدول النامية التى لابد لها وأن تعتمد على الاستفادة القصوى من قدراتها العلمية والتقنية والتنموية لتحقيق أعلى نتاج ضرورى ومؤثر. والعالم يمر الآن بتحولات علمية وتقنيات جديدة بالغة التقدم. والمتوقع أن تتم طفرات وقفزات علمية بالغة وسريعة فى جميع مناحى الحياة، ولابد من توافق مقنن ومحسوب بين المستوى الحضارى الذى يعيشه المجتمع،

والبعـد الذى يمكن دفعه إليه فى طريـق التحضر والرقى، ولا يتم ذلك إلا بالعمل الصادق، ونتذكـر كيف أعادت الدول التى حطمتها الحرب العالمية الثانية بناء نفسـها بالعمل الجاد. ولن يتأتى ذلك إلا من خلال خطـة علمية وتكنولوجية واضحـة المعالم يلتزم بها كل أفراد المجتمع، ويكون كل إنسان مدركا لدوره، بادئا بنفسه. ونجاح المجتمع من نجاح أفراده وتقديرهم للمسـئولية. ورغبتهم فى إحداث طفرة تبقى مع الزمن علامات مميزة وواضحة على طريق التقدم والرخاء.

يقول لافونتين «أحسـن مقياس لعقلية الإنسان... أهمية الموضوعات التى يتجادل فيها».

أ.د. سميرة سالم

تقديم المؤلف

الكتابة فى تبسيط العلوم والثقافة العلمية مهمة لكل مجتمع ينشد التقدم، خاصة فى مجتمع مثل مجتمعنا. ولقد تصديت للكتابة فى هذا المجال منذ عقود، على أنه يراودنى الآن حلم الكتابة فى فلسفة العلوم أكثر من تبسيطها، لقناعتى أن فلسفة العلوم أمضى فى التأثير على المجتمع والسعى به نحو الأفضل.

الفيلسوف والفلكى الأمريكى الفيتنامى الأصل «ترين كسوان ثوان Trinh Xuan Thuan» يقول فى وصفه للطبيعة والكون: ليست الطبيعة صامتة، بل هى ترسل موسيقى رخيمة، ولكنها لا تكشف لنا عن سر هذه النغمات وهذا الجمال إلا بالعلم الحر، فأهلا بالعلم الحر فى الزمن الحر والمكان الحر لخدمة الإنسان الحر. إن للعلم الآن اليد العليا بل تكاد تكون اليد الوحيدة فى تطور الحياة على الكرة الأرضية، فلابد أن يستجيب البشر لسطوة العلم ويتركوه ينظم حياتهم ويغير من غرائزهم وتقاليدهم للأفضل. يقول الطبيب والفيلسوف الفرنسى من أصل مغربى «موريس بوكاى Maurice Bucaille»: لقد اكتسب الإنسان حريته من خلال تنازله أو تخليه عن العديد من العقد الغريزية، وكذا التخلى عن الأفكار والعادات والتقاليد التى تضر بالمجتمع.

الكتابة فى الثقافة العلمية تعتبر مثل الناقوس الذى يدق لتنبيه المجتمع لأهمية ريادة العلم من أجل مجتمع أفضل. مجتمع يتمتع

بالحرية الكاملة. نحن – الشـرقيين – نُكون مجتمعا يختلف عن معظم المجتمعـات المتقدمة من سـكان المعمورة. نحن نحب مـا يكرهه معظم البشـر على سـطح الأرض. ونحرم ما يحلله أكثر البشـر. وما نعتبره جرائم نعاقب عليها بعضنا البعض. وهى ليست بجرائم فى المجتمعات الأخرى. فما هـى الفروق بيننا وبين باقى مجتمعات العالم. يكاد يكون من غير المسـموح فى بلادنا الحديث بحرية وبصراحة عن أشياء تخص حياتنـا ومجتمعنا لفهم ومعرفة أنفسـنا. هناك خطـوط حمراء وضعها المجتمع ليحمى نفسـه من التغيير خوفا من المجهول الجديد أو حفاظا على تخلفه. من ضمن الأشـياء التى تسـاعد على ذلـك لغتنا الجميلة. فهى تفتقر إلى المفردات الكافية. خاصة العلمية منها. مما يجعل فهمنا للأشياء قاصرا ومنقوصا.

كل تلـك الخواطر تراودنـى حين أبدأ الكتابة. وهـل لى أن أدخل معـترك كُتَّـاب التنوير من بوابة تبسـيط العلوم. أم أدخلـه من الباب الطبيعى له كفلسـفة يجب على المجتمع أن يفطن لها. أو حتى تكون من خلال رواية يحمل شـخوصها مشعل التنوير. وفى كل الأحوال تظل كتاباتى كلها متأثرة بتخصصى فى الفيزياء الفلكية والفضاء. فهى رؤية جديدة من وجهة نظر فلكية وفيزيائية.

فى كل سـفره من سفراتى أحمل معى روايات أدبية عديدة. أقرؤها ليعاودنى الحنين والرغبة فى الكتابة الفلسفية العلمية. والبُعد قليلا ولو مؤقتا عن الكتابة فى تبسيط العلوم. إننى أشم فى كل رحلة من رحلاتى رائحـة كل بلـد. وتراب كل بلد. وأشـعر بقربى لإنسـان هذا البلد. وأرضه وشمسه وروحه. ولا أجد فرقا بين أهل هذا البلد وبينى كإنسان

سوى أنى لم أولد بتلك البلد، بل أجدنى غارقا فى تراثه وتاريخه وحضارته وهى ليست غريبة. وحين تطأ قدماى مطار القاهرة أعود وكأننى ما سافرت ولا تأثرت ولا عايشت آخرين، حتى إنه وخلال بضعة أيام أكون قد نسيت تماما رحلتى هذه وتلك البلاد، وكأنى لم أرها من قبل، ولا يبقى إلا القليل من أوراقى العلمية التى قدمتها هناك أو أوراق علمية أخرى أخذتها من هناك. أشعر أننى أفقد الكثير بعدم كتابتى أثناء وبعد تلك الرحلات، ليس عن العلم فقط، بل عن تلك الشعوب وفلسفتها وعلمها، وعن هذه الحضارات التى سبقتنا أحيانا، أو مازالت تحبو مثلنا فى بدايات الحياة الحرة التى نتمناها. إن غالبية المحظورات فى بلدى مباحة فى معظم بلاد العالم، وكل جميل وممتع فى بلدى محظور أو غير مرحب بعمله. إنسان بلدى يعانى من الغربة أحيانا فى وطنه، وأحيانا أخرى يعانى من كثرة أو هوجة الكذب والكذابين والنفاق والمنافقين.

بعد طوفان ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١(*)، راودنى الأمل طويلا، بل كدت أن أتيقن من قدرة مصر على الخروج من عنق زجاجة التخلف، وخاصة بعد سلوك من قاموا بالثورة فى تنظيف ميدان التحرير بعد الاعتصام، ومطالبتهم بتغيير العادات البالية قبل المطالبة بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية. أسعدنى وجود شباب لا يقل ذكاء وألمعية عن شباب أكبر الديمقراطيات فى العالم، كدت أصدق أن الثورة قد غيرت العقول والتراث البالى المتمكن فى العقول، لكن هذا الأمل بدأ يخفت رويدا. بل راودنى الخوف من أن تكون تلك بدايات لموت نهائى لا رجعة بعده. لكن الأمل مازال بازغا طالما بقى هذا الشباب.

(*) التواريخ التى سترد فى الكتاب بالسنة الميلادية.

هـذا الكتاب عـن فرقـاء العلم والفلسـفة يختلف عن سـابقيه من مؤلفاتى. فهو يروى تجارب بعض العلماء والفلاسـفة الذين أثروا تاريخ البشـرية، وكيف كان لهم مناوئون وفرقاء عنهـم. وكيف تعامل هؤلاء العلماء والفلاسفة مع منتقديهم من زملائهم أحيانا أو من القادة المدنيين أو الدينيـين فـى عصرهم أحيانا أخرى. وكيـف تغلب الخير والفضيلة على أعدائهما لتستمر البشرية فى النمو والتطور. وفى جزء مهم من هذا الكتـاب نراجع الخلافات والاختلافـات فى مجتمعنا الحالى وكيف أن التخلف كان له تأثير على تلك الاختلافات.

سوف يكون هذا الكتاب بداية للخروج من القالب القديم فى الكتابة عن العلم وتبسـيط العلـوم، للكتابة فى موضوعات علمية وفلسـفية من وجهة نظر فلكية. ربما كان آخر ما نشـر لى، وهو كتاب «أحاديث عن العلم»، والذى صدر ضمن سلسلة «اقرأ» عن دار المعارف المصرية. مقدمة لهـذا الخـروج، ولكنه مع هـذا كان ليس خروجا بالصـورة التى كنت أنشـدها. ولعل هذا الكتاب يكون كما وددت ناقوسا يدق للتنبيه للخطر القادم إلى مجتمعنا. ومقارنة بالمجتمعات الأخرى. قبل فوات الأوان.

المؤلف

فى البدء كان العلم

منذ فجر التاريخ عندما فكر الإنسان ولاحظ ما يجرى حوله من شروق الشمس وغروبها وتوالى الليل والنهار، وسقوط الأمطار وحدوث الزلازل والبراكين. كان لابد وأن يصنع تعريفا وتحليلا لكل هذه الظواهر ويجتهد للتعرف على الأسباب. حسب ما أتيح له آنذاك. وهداه فكره إلى أن عملية الشروق تتم بسبب نقل الشمس ليلا على قرن حيوان أسطورى ضخم، لتشرق من ناحية الشرق صباح كل يوم، وبعد عدة آلاف من السنين. بدأ يلاحظ أن هناك دوران للأجسام السماوية حول الأرض. فاقتنع أن الأرض هى مركز الكون. والكون يدور حولها. ثم هداه علمه وبحثه بعد عدة ألوف أخرى من السنين إلى قناعة أن الشمس هى مركز مجموعتنا الشمسية. ووصل فى النهاية إلى فكرة أو أفكار مقبولة ساعدته على مزيد من التقدم.

لم يكتف الإنسان بتفسير الظواهر الطبيعية بل تجاوز ذلك إلى التفكير فى فلسفة الحياة وبداية الحياة على الأرض والخلود. وهل للكون بداية وهل له نهاية، وبذلك بدأ الإنسان يسجل مفردات ولغات وقراءة وكتابة التاريخ. لكنه فى كل الأحوال كان خائفا ويشعر بالضياع وقد أدرك النهاية المحتومة بالموت لكل البشر والكائنات، فبدأت الأديان وفكرة الحياة الأخرى بعد الموت. وفى خضم محاولة إيصال الخلود إلى الإنسان عن طريق حياة أبدية بعد الحياة الأرضية الدنيوية. بدأت تتشكل

أفكار البشرية مثل الحب والتضحية و الفضيلة والفداء والصبر والخضوع والرضا، وغيرها من الأفكار التى يمكن أن تجعل الإنسان يسمو بإنسانيته، وبالتوازى مع ذلك نشأ أجمل ما أبدعه الإنسان وهو الفن، ليحول الحياة الأرضية المادية الدنيوية إلى حياة تتسم بالجمال والخلود والاستمتاع بكل ما فى هذه الحياة من حلوها ومرها.

الخوف والفلسفة

يبقى الخوف دائما عند الإنسان شعورا دائما ومستقرا، وقائما على دلائل مثل الفناء، وثوران وفوران الأرض والبحر وغضبهما بين الحين والآخر، وظلام الليل الدامس المحيق حولنا، وهى جميعا ظواهر لا تتوقف على سطح الأرض، ربما كان الخوف عاملا مساعدا على التطور والتقدم فى أحيان، ولكن فى أحيان أخرى يكون عاملا مساعدا على التخلف. وفى كل الأحول ظل التطور فى كل مناحى الحياة الإنسانية رتيبا بطيئا منذ الأزل وحتى القرنين الماضيين، لدرجة أن كل كيان بشرى أو إمبراطورية كانت تتكون فى القدم، كان يعتقد القائمون عليها أن هناك ديمومة لكل شىء على سطح الأرض، ولا يوجد أى تغير، عدا شىء واحد هو توارث وتوارى الأجيال بعضها لبعض، وجاء هذا الإحساس نتيجة للإحساس بالبطء الشديد فى عملية التطور على مر العصور.

على أن الحياة على الأرض شهدت طفرة غير مسبوقة خلال القرنين الأخيرين، فمثلا كانت سرعة الإنسان وقدرته على التنقل بالمشى أو الجرى على الأقدام بضعة كيلومترات فى الساعة، ثم زادت سرعته باستخدام الدواب، واستمر الحال كذلك طوال التاريخ

حتى حدثت الطفرة وزادت بصورة طفرية بصناعة السفن والمركبات، لتصل السرعة إلى أكثر من ١٠٠ كيلومتر فى الساعة. وفى العقود الأخيرة طفرت البشرية طفرات أخرى بتطور صناعة الطائرات والصواريخ التى جعلت قدرة الإنسان على التنقل تصل إلى ٣٠ ألف كيلومتر فى الساعة، حيث تم إطلاق المكوك الفضائى أتلانتك وعلى متنه مجموعة من الرواد بتلك السرعة، حدث ذلك فى ١٠ يوليو ٢٠١١ فى إحدى رحلات أتلانتيك المكوكية بين الأرض وبين محطة الفضاء الدولية (من المعلوم أن تلك الرحلة كانت آخر رحلات هذا المكوك قبل إيداعه إلى المعاش لبلوغه السن القانونية، ومن المعلوم أيضا أن تلك الرحلة قد استغرقت حوالى عشرة أيام).

ورغم أن الإنسان الآن أكثر تطورا وأكثر أنسانية عن ذى قبل، إلا إنه مازال يقاتل بعضه بعضا، ومازلنا نجد جيوشا تتحرك ضد جيوش أخرى من أجل أحلام التوسع أو السيطرة، وأحيانا أهل الجنسية الواحدة يقومون بقتل بعضهم البعض، وخير دليل على تلك الوحشية ما شاهدناه فى الحروب الأهلية فى الجزائر ولبنان، وما وقع من قمع أثناء ثورات الربيع العربى وخاصة فى ليبيا وسوريا واليمن، وما وقع فى مصر من فوضى وقتل أثناء وبعد ثورة ٢٥ يناير من مذابح ليقتل الأخ أخيه من أجل أهداف أحيانا غير مجدية أو غير مفهومة. إن حب السيطرة قد أعمى البشر، وهو ما جعلنا قد نقتنع أن شركائنا فى الحياة على الأرض من حيوان ونبات وطيور وأسماك أكثر رحمة فى سلوكهم مع بعضهم البعض من بنى البشر. الحيوان يأكل النبات، والنبات يستجيب بدون مقاومة، والإنسان يأكل الحيوان والنبات وغيرهما. أما النبات الأكثر

عطاء وتسامحا لا يأكل إلا من الشمس والهواء والماء. صحيح أن النبات يحتكر جزءا كبير من مساحة الكرة الأرضية فى صورة غابات شاسعة ومنها المتوحشة. صحيح أن النبات يحمى نفسه بأن يجعل وجوده مهما لنمو الحياة الإنسانية والحيوانية على سطح الأرض بأن ينتج الأكسجين. إلا إنه يمكن القول إنه مازال الأكثر عطاء وتسامحا.

منذ حوالى ٧ آلاف سنة كان حوض النيل لا يسكنه إلا الحيوانات والنباتات المتوحشة والطيور الجارحة، قبل أن يستوطن الإنسان المصرى وادى النيل قادما من الصحراء الغربية المصرية التى كان المصرى يسكنها لأكثر من ٢٠ ألف سنة قبل حضارة وادى النيل (الحضارة الفرعونية). رحل الإنسان المصرى من الصحراء الغربية إلى وادى النيل بعد أن نضبت الموارد والمياه فى الصحراء الغربية بسبب التصحر والتغير المناخى طويل الأجل الذى يحدث بصورة درامية مرة كل ٢٢ ألف سنة. ليصنع أعظم حضارة عرفتها البشرية على ضفاف النيل. فهل هذا الشعب المتجزر الأصول غير قادر الآن على النقلة النوعية فى سبيل التحضر، ليجر معه المنطقة العربية إلى بدايات عالم جديد.

ولو عدنا للبدايات الأولى، وقبل سكان وادى النيل وسكان صحراء مصر الغربية، هل كانت رحلة بنى البشر وصراعهم من أجل السيطرة على الحيوان والنبات سهلة أم صعبة؟.

تخبرنا مسيرة التاريخ أن الإنسان عانى كثيرا فى فجر الحياة، فلم تكن السيطرة على الحيوان وهزيمته بالسهولة الممكنة. فقد ظل الإنسان ينهزم أمام الحيوان، لكن هذه المعاناة جعلت الإنسان يثابر إلى أن هزم الحيوان الهزيمة النهائية باستئناس القطعان البرية وتدجينها. وبدأت مسيرة

البشـــر فى صنع الحضارة الإنسانية، وبدأت الثورة الزراعية التى هيأت لمجتمعات إنسانية حضرية، وبدأ الإنسان فى صنع نظم وقوانين لجعل الحياة أكثر أمنا وأكثر سهولة، بل أكثر متعة. ولا ننكر أنه فى البدايات الأولى وكثرة الصراع بين الإنسان والحيوان جعل البعض من البشر يرثون بعض صفات الحيوان أو يتصرف كالحيوان البرى بين أقرانه، بل ويسن قوانين تقنن حق المنتصر بأن تجعل القوة فوق الحق والعدل وليس العدل أســاس الملك، بل يصــل الأمر إلى تحليل تلك الممارســات بقوانين مثل تحليل الرق وتحليل الغنائم مِن بين مَن خســر المعركة، ويصل الأمر أن يرضى البشــر بأن يتحول جزء منهم إلى عبيد تباع وتشترى. حدث هذا فى عصور ما قبل التاريخ وفى العصور الوسطى، وحدث هذا أيضا حديثا خلال الحربين العالميتين الأخيرتين. ولكن بعد طول معاناة تعلم البشــر الدرس، وتلك المعاناة جعلت الإنسان يصنع النظم والقوانين التى تحمى آدميته مثل قوانين حقوق الإنســان، والعدل أساس الملك، ونشأت الأمم المتحدة وانبثق عنها مجلس الأمن ومحكمة العدل الدولية وسائر المنظمات الدولية، وأخذ الإنسان يحاول أن يكون لحياته هدف نبيل وأكثر أمنا، وأكثر سهولة وأكثر متعة، وتصاعد طموح الإنسان كى يحقق حلمه وأمله القديم فى الخلود.

يقول الفيلســوف الفرنســى جان بــول ســارتر Jean Paul Sartre (١٩٠٥– ١٩٨٠) «إن تاريخ البشــرية يتلخص فى محاولة الإنســان أن يكون إلها خالدا». ورغم شهرة سارتر كفيلسوف وأديب وكاتب مسرحى وناقــد اجتماعــى، فإن أبرز ما يميــزه هو طرحه لنظريــة «الوجودية»، وارتباطها بشكل كامل به، كأنهما وجهان لعملة واحدة، فالوجودية هى

جان بول سارتر وجان بول سارتر هو من عرف الوجودية. والوجودية هى فلسفة تقوم على نظرة إلى الإنسان الفرد ترى أن «وجوده» هو أهم صفاته، وأنه غاية بذاته، ولا أهداف لما وراء وجوده، بل هو الذى يحدد أهدافه بنفسه. وتؤكد من جهة أخرى أن حرية الإنسان مطلقة ولا حدود لها. وقد أثرت فلسفة سارتر الوجودية فى معظم أدباء عصره، ومنح جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٦٤ لتعترف البشرية بفضله فى تطوير الفكر البشرى. وقد ساهم أيضا فى إعطاء الجزائر استقلالها ووقف أمام حركة بلاده الاستعمارية وكان قوله المشهور «السلام هو الحرية».

العالم المصرى د.أحمد شوقى فى كتابه «هندسة المستقبل» يقول إن القرن الحالى هو قرن الإنسان العاقل، ويرى أن الإنسان حتى الآن لم يصل إلى العقل. وفى سرد فكرته يستطرد قائلا «لقد كانت كل دعوة للحق والخير والجمال دقة على جدار البيضة التى تحبسه مثل الكتكوت فى البيضة، فهى تهدده وتهددنا معه بالاختناق، نحن ندق الجدار بعنف لأننا فى لحظة حرجة قد يتم الخروج بنا وبه، من هذه الحياة التى سئمناها أو ندمر اللامعقول فى ترسانات السلاح وآليات التخلف فى عالمنا». فهل الخروج من هذه البيضة سوف يُحول البشرية المتخلفة إلى الإنسانية العاقلة. لقد كانت كل دعوة للحق والخير والجمال هى دعوة لاعتلاء الإنسان العاقل ناصية الحكم، لنرى عالما جديدا. ويقول الطبيب والفيلسوف المصرى د. يوسف إدريس «لماذا أصر هذا الإنسان على الدق والدق لكسر الجدار وهو لم يكن يعرف أنه جدار؟ وأن خارجه كل ذلك النور والاتساع؟ أهى قوة مجهولة بداخله كانت تعرف ؟».

عصر العلم

إن العصر الحالى هو عصر انتصار العلم والتوعية البشرية بطريقة لم يسبق حدوثها. وكيف لا وأدوات الإنسانية الآن غير مسبوقة. فهل نعلم أن أكثر من ٩٠٪ من العلماء عبر تاريخ البشرية الطويل هم من الأحياء الآن ويعيشون بيننا؟! وهل نعلم أن البشرية تملك الآن ذاكرة أقوى من ذاكرتها الشخصية بعدة ملايين بل المليارات من المرات، وهى ذاكرة الكمبيوتر؟! والقادم من جيل الكمبيوتر المسمى بالنانو أو الكوانتم كمبيوتر سوف يجعل كمبيوترا واحدا من النوع الجديد له ذاكرة تفوق ذاكرة كل أجهزة الكمبيوتر الموجودة حاليا فى العالم. وعليه يستمر التقدم والتطور بصورة مذهلة على كل الجبهات والجهات، إلا جهة واحدة وهى منطقتنا العربية، لكونها المنطقة غير المتحضرة نسبيا بالمقارنة بباقى أجزاء المعمورة، فما أسباب ذلك من وجهة النظر الفلسفية والعلمية؟.

نحن فى أمس الحاجة الآن، وفى هذا الوقت بالذات وبعد ثورة يناير، إلى كلام مختلف عن السائد، إننا نحتاج ليس فقط لكلام جديد، بل لفكر جديد، ونوع من نمط الحياة جديد، حتى نتكيف وننسجم ونلحق بباقى سكان المعمورة، الذين يستخدمون الآن تكنولوجيات تفوق خيال البشر. إننا محتاجون للتكلم عن الفضاء الفكرى المحيط بنا، وعن آفة التخلف، وجرثومة الجهل، وغيرها من الآفات الكامنة والمتحكمة فى مجتمعاتنا. إننا محتاجون لعقول جديدة غير هذه العقول المعطلة التى نملكها. لعلنا نجد حلا لبعض مشاكلنا المستعصية وخاصة الفكرية منها، وبالتالى سوف تحل باقى المشاكل مثل العيش والحرية والعدالة الاجتماعية.

وهناك حقيقة لا شك فيها حسب الإحصاءات أن هناك نسبة فى مجتمعنا تصل إلى أكثر من ١٥٪ من البشر ذوى قدرات وذكاء عالٍ، بل فى أحيان كثيرة يكونون متفوقين على أقرانهم فى العالم المتقدم. هؤلاء يمكن لهم أن يحققوا طفرة حياتية فى مجتمعاتهم، لو توفر لهم المناخ المساعد لذلك، وهذا العدد يكفى لتغيير أى مجتمع أو منظومة مجتمعية فى غضون خمس سنوات على الأكثر، لكن للأسف الغالبية المتخلفة تمنع بل تدمر أى عمل يقوم به هؤلاء، وخير دليل على ذلك هو ما حدث أثناء الفترة التى تسمى فترة التحول الديمقراطى فى مصر بعد ثورة شعب مصر فى يناير ٢٠١١. فهل آفة التخلف ومستوى تواجدها فى مجتمع ما تساعد أحيانا على تأجيل الطفرة، هل تلك الآفة هى التى تحول المجتمع إلى مجتمع الفقر والجهل والمرض. هل آفة التخلف مرتبطة بالموروثات البالية وأفكارعصور الانحدار؟ أم هى مرتبطة بتقاليد العصور الوسطى المسيطرة على مجتمعنا حتى الآن، أو من البيئة وحرارة الجو وقسوة الأرض فى هذا الجزء من العالم؟ أم هى جينات قد ورثناها من أجدادنا الأعزاء على مر العصور؟ أم أن آفة التخلف لها علاقة بموضوع الخير والشر وتفضيل المتخلفين للشر عن الخير فى سلوكهم؟ وهل الحلول ممكنة أم مستحيلة؟.

من غير الممكن أن يكون تخلفنا وراثيا. لأننا أصحاب حضارات عظيمة سابقة. وغير ممكن أن يكون بسبب البيئة لنفس سبب نمو حضارات قديمة فى تلك البيئة. فهل الخير والشر والعادات والتقاليد هى من بين الأسباب فى شيوع هذا التخلف؟ وهل الحل يكمن فى العمل المثابر الطويل الجاد، وهل الدأب فى العمل الروتينى يمكن أن يساعد

علـى تطور هذا المجتمـع، خاصة إن كان له مردود مـادى جيد على حياتهم. إن الإنسـان الآلة – الذى يعمل ليلا ونهارا – يمكن أن يكون أفضـل السـبل والحلول للتغلـب على جزء كبير من هـذا التخلف. إن إلهام هؤلاء البشر بأن العمل سوف يساعدهم على العيش فى حياة أكثر رغدا، وأن الحياة تسـتحق أن نحياها لا أن نحاربها، وأنه من الأهمية إفسـاح المجال للإنسـان العاقل أن يبدأ مسـيرته فـى تعمير الأرض، ليـس لنا وحدنا، ولكن للبشـرية ككل. هل ذلـك يمكن أن يكون أحد الحلول المتاحة؟.

دائمـا ننحـاز للعلـم فى عصر العلـم ودوره فى فك شـفرة التخلف المجتمعى، لأن العلم فى هذا العصر هو السلاح الماضى والممكن حاليا.آن الأوان أن نتكيف وننسجم مع باقى سكان المعمورة.

○○○

اختلاف العلماء

إن العلـم يعتمـد على النظرية والتجريب، ويمكـن أن يتم بعد فترة زمنية إثبات النظرية فتتحول إلى قانون. وعدم القدرة على إثبات النظرية لا يعنـى خطأها. ولكن تبقى التجربة وما تسـفر عنه هى الحقيقة التى لا يمكن إنكارها وهى أقوى من النظرية والقانون.

اختلاف علماء الغرب

كان هنـاك دائما اختلاف بـين العلماء، وخاصـة النظريين منهم، مـع العلماء التجريبيـين أو العمليين فى كثير مـن الأحيان. مثال ذلك عالم الفيزياء النظرية المعاصر الانجليزى الأصل سـتيفن هوكنج Steven Hawking فى نظرياته عن نشـأة وتطور الكـون. لقد حارب نظرياته العديد من العلماء التجريبين بل والنظريين أنفسـهم، وقد حاربته بعض المؤسسـات العلمية المهمة على مستوى العالم. ومازالت نظريات ستيفن هوكنـج بدون تجريب أو إثبات عملى على صحتها حتى الآن، وبالتالى تظـل نظرية وليسـت قانونا. لكـن لم يصل هذا الخلاف بـين العلماء الغربيـين وبعضهم إلى حد القذف أو التطاول كما يحدث فى مجتمعاتنا حين نختلف. من المعلوم أن سـتيفن هوكنـج صاحب نظرية الأوتار فى ميكانيكا الكم لفهم نشـأة الكون، وله نظريات فى الثقوب السـوداء فى الكـون، ويقول فى كتابه الأخير «الكون فى قشـرة جوز» إن الكون بدأ فى شكل كريّة مفلطحة فى أجزاء منها، تشبه قشرة الجوز فى حجمها

وشكلها وإن الثقوب السوداء لم تعد كاملة السواد، وإنما هى تشع وتتبخر لتتلاشى، وحيث ينشأ الكون من بذرة حجمها وشكلها كثمرة جوز حسب نظرية هوكنج.

الخلاف الذى كان قائما بين العالم الانجليزى إسحق نيوتن Isaac Newton والعالم الألمانى جوفريد لايبينتز Gottfried Leibniz فى أحقية كل منهما فى اكتشاف علم التفاضل كان فيه بعض المغالاة من نيوتن، إلى أن وصل هذا الخلاف إلى مرحلة متدنية من نيوتن باتهام لايبنتز بالسرقة العلمية. حقيقة كان هناك شجار بينهما ولكن لم يصعد لأكثر من بعض الاتهامات، وبدون قضاء أو قضايا أو تصفية أو إقصاء أو عمليات تكفير كما يحدث فى بلادنا. من المعلوم أن الجاذبية وقوانين الحركة كلها كانت من نظريات وإبداعات نيوتن وكان لايبنتز متميزا فى القوانين والمفاهيم الأساسية لعلم التفاضل والتكامل وبالفعل قد تصدى لها أيضا نيوتن ولكن لايبنتز كانت مفاهيمه أكثر وضوحا. أيضا صامويل كلارك تلميذ نيوتن قد تصدى مع أستاذه للهجوم على لايبنتز وأخذ يفند عيوبه وسقطاته بطريقة غير مرضية، ويمكن أن تكون تلك الصراعات قد بدأت نتيجة لتدخل كليهما فى الكتابة فى تبسيط العلوم وتعرضهما للدين أحيانا. فيقول نيوتن «لقد تمنيت لو تعمل مبادئ نظام الكون على غرس الاعتقاد بوجود إله لدى البشر»، وقال «إن هذا الاتساق المعجز فى نظام الكواكب لابد أن يكون له فكرة الاختيار». وعلى الرغم من هذا، أصر نيوتن على أنه لابد حتما من التدخل الإلهى فى آخر الأمر لإصلاح هذا النظام، نظرا للنمو البطىء للتقلبات. وقد سخر منه لايبنتز متجنيًا فى هذا الأمر قائلا «يلزم الرب أن يضبط ساعته بين الحين والأخر وإلا توقفت عن الحركة. يبدو أنه لم يكن لديه البصيرة الكافية ليجعل حركتها دائمة».

من المعلوم أن إسحق نيوتن (١٦٤٣ – ١٧٢٧) كان فلكيا وفيزيائيا وواحدًا من العلماء الأكثر تأثيرا فى تاريخ البشرية. ويعد كتابه «الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية» والذى نشر عام ١٦٨٧ من أكثر الكتب تأثيرا فى تاريخ العلم ووضع أسس لمعظم نظريات الميكانيكا الكلاسيكية. فى هذا الكتاب، وصف نيوتن الجاذبية العامة وقوانين الحركة الثلاثة، التى سيطرت على النظرة العلمية إلى العالم المادى للقرون الثلاثة التالية لوفاته. أوضح «نيوتن» أن حركة الأجسام على كوكب الأرض والتى لها أجرام سماوية تحكمها مجموعة القوانين الطبيعية نفسها عن طريق إثبات الاتساق بين قوانين كبلر الخاصة بالحركة الكوكبية ونظريته الخاصة بالجاذبية، ومن ثم إزالة الشكوك المتبقية التى ثارت حول نظرية مركزية الشمس مما أدى إلى قيام الثورة العلمية. وفيما يتعلق بالميكانيكا، قنن «نيوتن» مبادئ بقاء الطاقة الخاصة بكل من كمية الحركة وكمية الحركة الزاوية. وفى علم البصريات، اخترع «نيوتن» أول تلسكوب عاكس علمى. بالإضافة إلى ذلك، صاغ قانونا للتبريد ودرس سرعة الصوت. وشارك «نيوتن» «لايبنتز» فى تطوير حساب التكامل والتفاضل الذى أثار بينهما المشاكل. كما أثبت أيضا نظرية ذات الحدين المعممة. تظل مكانة «نيوتن» الرفيعة بين العلماء فى أعلى مرتبة. وكان نيوتن تقيا متدينا علي الرغم من أنه لم يكن متفقا مع الأعراف الدينية القائمة، وكان مؤلفا للعديد من الأعمال فى تفسيرات الكتاب المقدس، وممكن أن تكون أكثر مما أنتجه فى العلوم الطبيعية، والتى لم ينس العالم إسهاماته بها حتى الآن. ومن المعلوم أن هناك الكثيرين أيضا ممن اتهموا نيوتن بأنه ملحد.

يمكن القول إن هناك خمسة علماء لعبوا دورا أساسيا فى نقل أوروبا من مرحلة التخلف إلى مرحلة النهضة. هؤلاء العلماء هم البولندى كوبرنيكوس، والدنماركى تايكو براهه، والألمانى جوهانز كبلر، والإيطالى جاليليو جاليلى، والانجليزى إسحق نيوتن. ولعل أكثر هؤلاء العلماء تأثيرا هو كوبرنيكوس لأنه هو صاحب النظرية الأولى التى زلزلت كيانات الجمود القائمة فى عصره وهى مركزية الشمس ودوران الأرض حولها. إن نتائج نظريات كوبرنيكوس قد تخطت حدود الفلك لتؤثر فى الدين والسياسة والفلسفة والثقافة الإنسانية كلها. وقد أثبت خطأ نظرية بطليموس- أرسطو التى استمرت أكثر من ٢٠ قرنا دعمتها الكنيسة. وجعلت مجرد التشكيك فى هذه النظرية كفرا. إذن الأرض تدور حول الشمس والأرض ليست مركز الكون بل كانت كل هذه السنين الماضية على خطأ. وقد تحدثنا عن إسحق نيوتن بالتفصيل أما العلماء الخمسة الباقون فهم:

١ - نيكولاس كوبرنيكوس Copernicus (١٤٧٣ - ١٥٤٣)

العالم الرياضى والفلكى البولندى الأصل كان أحد أعظم علماء عصره. وهو أول من صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جسم يدور، ويعتبر هو مؤسس علم الفلك الحديث. وكان مشجعا للعلماء والباحثين على تحدى القوانين السائدة آنذاك وتقديم العلم على العقائد التقليدية. قضى كوبرنيكوس ٢٠ عاما من العمل على نظرية مركزية الشمس وكان عمله الأساسى تحت عنوان «عن دوران الأجرام السماوية» وقد انتهى من هذا العمل فى سنة ١٥٣٩، وقد ظهر عمله هذا لأول مرة فى سنة ١٥٤٣ قبل وفاته بعدة سنوات. ألقى عدة محاضرات فى روما.

عرض فيها مبادئ نظريته دون أن يثير غضب الكنيسة عليه، وعندما أكمل كتابه عن دورة الأجرام السماوية، لم ينشره خوفا من الكنيسة أيضا ولم يرَ هذا الكتاب النور إلا يوم وفاته. فى هذا الكتاب أثبت أن الأرض تدور حول نفسها وتدور حول الشمس. وأن القمر يدور حول الأرض. وأن الأرض والكواكب الأخرى كلها تدور حول الشمس. ترجع شهرة كوبرنيكوس إلى تبنيه فكرة مركزية الشمس، أما الدليل على صحة قوانين كوبرنيكوس أتت على يد كيبلر بعد ٨٠ سنة من وفاته. بعد أن حرر نظرية كوبرنيكوس من جداولها وحولها إلى قوانين.

٢ - تيكو براهِه Tycho Brahe (١٥٤٦ -١٦٠١) كان نبيلا دنماركيا ثريا وعمل كفلكى ورياضى وكيميائى، اكتشف مجموعة ذات الكرسى سنة ١٥٧٢ وألف كتاب «النجم الجديد» الذى أكسبه شهرة فى أوروبا. ولم يقتنع تيكو براهه بالتسهيلات الفلكية فى كوبنهاجن، فذهب إلى كاسل، حيث يوجد المرصد الفلكى هناك وقام برصد النجوم وتحديد مسارها، ثم عاد إلى كوبنهاجن لينشىء مدينة للرصد الفلكى أطلق عليها أورانبرج (مدينة السماء)، وكانت تضم مساكن ومكتبة ومعملا وعدة مراصد ومصنعا لما تحتاج إليه من آلات. ولم يكن لديه تلسكوب بالطبع، حيث كان لابد من الانتظار ثمانية وعشرين عاما حتى يتم اختراعه على يد جاليليو، على أن أرصاده هى التى قادت كبلر إلى اكتشافات عظيمة كانت فاتحة لعصر جديد. وقد سجل براهه كل يوم، ولعدة سنوات، حركة الشمس الظاهرية، وكان من أوائل الفلكيين الذين أدخلوا فى حسابهم انحراف الضوء وأخطاء الراصدين والآلات، ولذلك عاود إرصاده وملاحظاته مرات ومرات. وكشف عن التغيرات فى حركة القمر ووضعها

فـــى صيغة قانون. وأدى به تدقيقه الشـــديد فى تفقـــد أحد المذنبات فى سنة ١٥٧٧ إلى الاعتقاد السائد فى العالم حتى الآن، بأن المذنبات أجرام سماويـــة حقيقية تتحرك فـــى مدارات محددة منتظمـــة، بدلا من كونها تنشـــأ فى الغلاف الجوى للأرض. ونشـــر تيكو الجـــداول الذى جمعت ٧٧٧ نجما، حددها بعناية فائقة على القبة السماوية الضخمة.

٣ – يوهانز كيبلر Kepler (١٥٧١– ١٦٣٠) عالم فلكى ألمانى كان أول مـــن وضع قوانين تصف حركة الكواكب بعـــد اعتماد فكرة الدوران حول الشـــمس كمركز لمجموعة الكواكب من قبـــل كوبرنيكس وجاليليو وقد جاء بعدهم بثمانية عقود. وهو أول من اكتشف أن مدارات الكواكب ليســـت فى مدار كروى كامل بل توجد فى شكل قطع ناقص له بؤرتين الشـــمس تقع فى إحداهما. اهتم كيبلر بدراسة ظاهرة انكسار الضوء وبرع فى الرياضيات بشكل كبير، واستطاع أن يحقق قوانين حساب التفاضل والتكامل. إن قوانين كبلر هى التى ســـاعدت الإنجليزى إســـحق نيوتن على اكتشاف قانون الجذب العام حيث بينت قوانين كبلر أن هناك قوة تجاذبية بين الكواكب.

٤ – جاليليـــو جاليلـــى Galileo Galilei (١٥٦٤– ١٦٤٢) هـــو عالم فلكى وفيلســـوف وفيزيائى إيطالى، ولد فى بيزا فى إيطاليا ونشـــر نظرية كوبرنيكوس ودافع عنها بقوة على أســـس فيزيائية، فقام أولا بإثبات خطأ نظرية أرســـطو حول الحركة ومركزية الأرض للكون، وقام بذلك عن طريق الملاحظة والتجربة. كان جاليليو قد دافع عن نظرية كوبرنيكوس بخصوص أن الشمس ثابتة والأرض والكواكب تتحرك حولها. واستاء قساوسة الفاتيكان لأن ذلك مخالف لما جاء فى الإنجيل بأن الأرض ثابتة. وكان اعتقاد رجال

الكنيسة آنذاك بأن الأرض ثابتة والشمس والكواكب تتحرك حولها. وتم اتهام جاليليو بالخروج عن تعاليم الإنجيل والكنيسة.

وفى سنة ١٦١٥ بدأت محاكمة جاليليو بأن أصدر القسيس باولو أنتونيو فوسكارينى كتابا أراد أن يثبت به عدم صحة الاستنتاجات الفلكية لكوبرنيكوس وأنها لا تتطابق مع ما جاء فى الإنجيل. وبناءا على ذلك أنشأت السلطات البابوية لجنة تقصى الحقائق ومنعت عدة مخطوطات عن الاستنتاجات الفلكية لكوبرنيكوس وأخرى ليوهانيس كبلر. إلا أن كتاب كوبرنيكوس الأصلى الذى نشر عام ١٥٤٣ لم تمنعه الكنيسة وإنما منعت تداوله، وحفظ حتى عام ١٨٢٢ فى مكتبة الفاتيكان.

وفى سنة ١٦٣٢ اتهم جاليليو بعدم الطاعة، وفى روما حكمت عليه المحكمة عام ١٦٣٣ بأنه يعترض على ما جاء فى الإنجيل، وتم اتهام جاليليو بالاشتباه بالهرطقة، وحكم عليه بالسجن، وفى اليوم التالى خفف الحكم إلى الإقامة الجبرية، ومنعه من مناقشة تلك الموضوعات، وأعلنت المحكمة بأن كتاباته ممنوعة. ومنذ ذلك اليوم اعتكف جاليليو جاليلى فى بيته وأمضى به بقية حياته وحافظ على عدم نقاش نظام كوبرنيكوس علنا. واهتم فى عمله بدراسة حركة أقمار المشترى واتخاذها كأداة لقياس الزمن من أجل حل مشكلة خطوط الطول، ولكنه لم ينجح فى تفسيرها. ثم حول التلسكوب إلى الميكروسكوب، وكان يراقب الأشياء بالمجهر مجرد مراقبة ولكن من غير اهتمام حقيقى. فى تلك الأثناء كتب جاليليو كتابا بعنوان «علمان جديدان». وفيه كتب عن الكينماتيكا وهى علم حركة الغازات، وكتب عن «صلابة المادة» ولقد مدحه أينشتين كثيرا. وسمى جاليليو جاليلى «أبا العلم الحديث».

اعترفت الكنيسة الكاثوليكية بخطئها فى عام ١٩٣٩ وقام البابا بيوس الثانى عشر بعد أشهر قليلة من ترسيمه لمنصب البابوية بوصف جاليليو «أكثر أبطال البحوث شجاعة». وفى عام ١٩٩٢ قام البابا يوحنا بولس الثانى بالتعبير عن الندم تجاه الطريقة التى ووجهت بها أعماله. وأعلن الاعتراف بالخطأ التى ارتكبته الكنيسة الكاثوليكية. وفى مارس ٢٠٠٨ قام الفاتيكان بإتمام تصحيح موقفه تجاه جاليليو بوضع تمثال له داخل جدران الفاتيكان. وفى ديسمبر من العام نفسه أشاد البابا بندكتيوس السادس عشر (ألمانى الجنسية) بمساهماته فى علم الفلك أثناء احتفالات الذكرى الـ ٤٠٠ لأول تليسكوب عرفته البشرية على يد جاليليو جاليلى.

اختلاف علماء الشرق

هذا هو الخلاف وتلك هى موضوعاته فى بلاد الغرب، أما فى بلاد الشرق فالخلاف ممكن أن يكون على أشياء لا يمكن تصورها. حاورنى أحد الأشخاص بأنه كيف تعتقد أن الشمس مركز الكون، وأن الأرض كروية، وأنها تدور حول نفسها كما تدور حول الشمس، بل تقوم بتدريس هذا للطلبة وتشوش عقولهم، وأخذ يذكر أسانيده التخيلية أحيانا والدينية أحيانا أخرى عن كون الأرض مركز الكون ومنبسطة وليست شبه كروية، وبعد أن علمت أنه حامل لدرجة البكالوريوس، حزنت كثيرا أن يكون هذا مستوى خريجى الجامعات. هذا الأمر تكرر كثيرا، من تلك المرات كان لطيار مدنى يحمل الجنسية السورية، قال لى أن الأرض منبسطة وليست كروية كما أراها من السماء، وكان من المستحيل إقناعه. وأحيانا كانت تحول لنا أكاديمية البحث العلمى كتبا

مقدمة للأكاديمية على أساس أنها براءات اختراع بأن الأرض مركز الكون وباقي ما في السماء هي مصابيح لخدمة الإنسان والحياة على سطح الأرض المنبسطة.

والأكثر غرابة من يعتقدون في تأثير الأبراج على حياة البشر ومستقبلهم والغيب وقراءة الطالع ومن طلع ومن نزل وهل محبوس في أي طالع. كان هذا الاعتقاد مقبولا في عصور التخلف منذ مئات السنين أن يكون هناك اعتقاد بين التنجيم وبين العلوم الأساسية مثل علم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء. ولكن الآن وبعد هذه الحضارة والتقدم العلمي فإنه من غير المقبول الخلط بين العلم والخرافة. في القدم كان يعتقد البعض أن طبائع البشر ومستقبلهم يمكن التنبؤ بها عن طريق تقسيم البشر إلى أربعة أقسام هي قسم نارى أو هوائى أو ترابى أو مائى. وقد جاء هذا التقسيم استنادا إلى بعض النظريات الكيميائية القديمة التي كانت تعزو أن كل ما هو موجود في الكون لا يخرج عن تلك المواد الأربعة. وأخذ الذين يعتقدون ذلك بتقسيم طبائع البشر حسب طبيعة مادة كل قسم بمعنى أن النارى يكون ذكيا وعصبيا ولكن سريع الغضب. والترابى قوى الشخصية له مهابة عند الآخرين وقوى الإرادة. وهكذا.

وكان هناك أيضا اعتقاد أن ثمة علاقة بين الأبراج الاثنى عشر التي تأتي من دوران الأرض حول الشمس في١٢ شهرا. وكل شهر تقع الأرض في مجموعة نجمية أو مجرية معينة. والبعض من مروجي الجهل والتخلف منذ القدم وجدوا أن ميلاد كل فرد في برج يجعل التنبؤ بمستقبله ممكن، وكذا قسموا أصحاب كل برج من حيث تاريخ الميلاد إلى طبائع معينة يشترك فيها أقرانه من مواليد هذا البرج،

وسمى بعد ذلك هذا النحو بالتنجيم. إن عملية ربط علم من العلوم الأساسية مثل علم الفلك بالخرافة والتنجيم لجريمة قد تجر المجتمع إلى التخلف والجهل، فعلم الفلك هو القاطرة التى تجر التحضر البشرى منذ فجر التاريخ، فقد كان لعلم الفلك الفضل فى معرفة الحساب بغرض عد النجوم وحساب المثلثات لمعرفة مواقعها، كما أن معرفة تركيب الذرة فى العصر الحديث وما نتج عنه من بدايات التكنولوجيا الحديثة قد عرفت من خلال الرصد الفلكى لطيف الشمس وانزياح خطوط الطيف. والتطور المذهل الآن فى وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية وبالأقمار الصناعية ما هو إلا ناتج من نواتج عصر الفضاء الذى بدأه علماء الفلك بفك قوانين الجاذبية ودراسة الكون. وهل التطور فى وسائل التصوير ما هو إلا ناتج من نواتج تطوير وسائل التصوير الفلكى عبر الأقمار الصناعية؟ ناهيك عن التقدم المذهل بمستويات الكمبيوتر والإنترنت الحالى، ما هو إلا ناتج من نواتج تطوير تكنولوجيات ارتياد الفضاء. وببساطة يمكن القول إن كل العلوم تضافرت من أجل الصحوة الحالية وغير المسبوقة فى تاريخ البشرية، وغالبا ما يكون علم الفلك هو القائد والبادئ فى النظرية والتجريب والمشاهدة. وكان هذا منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا.

وعند استعادة ما جرى عبر التاريخ نجد أن ارتباط جميع أنواع العلم المختلفة، وليس علم الفلك وحده، بالخرافات وقراءة الغيب كان موجودا، نتذكر بيت الشعر المشهور للشاعر العباسى أبى تمام:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ

فى حدهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعبِ

بيضُ الصَّفائحِ لاَسودُ الصَّحائفِ
فى مُتُونِهنَّ جلاءُ الشَّك والريَبِ
والعِلْمُ فى شُهُبِ الأَرْمَاحِ لاَمِعَةً
بَيْنَ الخَمِيسَيْنِ لافى السَّبْعَة الشُّهُبِ
أَيْنَ الروايَةُ بَلْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا
صَاغُوه مِنْ زُخْرُفٍ فيها ومنْ كَذِب

وفية يصف الشاعر أن السيف والجيش أصدق من الكتابة والكتب وقد هزم العلم والكتب والمنجمين. وهذا يدل على الاعتقاد السائد أن التنجيم والعلم كانوا شيئا واحدا فى العصور الوسطى.

الآن يجب على المجتمع ألا يعطى الفرصة لمن يعيشون بيننا بعقول العصور الوسطى، ألا يطرحوا تلك الأفكار المدمرة ويؤثرون بها على البسطاء من الناس. بل أحيانا كثيرة تستخدم تلك الوسائل للنصب على المجتمع وتجميع ثروات من ذلك. يجب مساعدة المجتمع على تغييرعقولهم وفكرهم بأسلوب علمى حتى ينصلح أحوال الوطن.

ومن مصادر الاختلاف أيضا فى بلادنا هو هل العلاج بالبخور أحسن من العلاج بالأعشاب أو بالحجاب أو بالكى أو ببول الإبل أحيانا أخرى. وتجد الخلاف على أشده، وممكن أن تجد هذا فى وسائل الإعلام المرئية أو فى مساحات على صفحات الصحف والمجلات حتى بعض المؤلفات لبعض المؤلفين الذين يحيون بيننا الآن. ولكن بعقول العصور الوسطى. هذا هو مستوى الخلاف ومستوى موضوعات الاختلاف عندنا. والغريب أن الإعلام بأغلب أنواعه يتسع لمثل هذه المهاترات

وتـرى بعينك كيف يخـرج الجن من الإصبع الأكبر للقدم اليسـرى من الشخص الذى لبسه هذا العفريت الأكتع.

فـى أوائـل القرن العشـرين، حدث تصادم فـى الآراء فى مجتمعنا وصل أحيانا إلى حد تكفير كاتب كبير مثل د. طه حسـين بسبب كتابه «فى الشعر الجاهلى»، ولكن تمت تبرءته أمام المحاكم. حدث هذا أمام محاكم شـرعية، وتم بهذا الحكم سن قانون لحرية التفكير وحرية الفكر فى بدايات الدولة الليبرالية المصرية التى بدأت بعد انهيار دولة الخلافة سـنة ١٩٢٤ لتسـتمر تلك الدولة حتى سـنة ١٩٥٢، قبـل أن تتحول إلى دولة عسـكرية يحكمها العسكر بلباس عسكرى أحيانا ولباس مدنى أحيانـا أخرى. وخاصة منهم من اسـتغنى الجيش عـن خدماته فيتولى مناصب مدنية لإدارة شؤون البلاد.

ومنذ أكثر من مائة عام أيضا اختلف صديقان حول ما إذا كان آدم رسـولا أم لا، ورفض أحدهم أن يكون آدم رسـولا حيث أنه لم يكن هناك بشـر غيره فى الأساس، وقام صديقه برفع قضية أمام المحاكم الشـرعية لإثبات كفر صديقه ولكن المحكمة ومنذ أكثر من مائة سنة رفضـت تلك الدعـوى، وقالت لهم اعملوا لصالح هـذا الوطن أفضل من التناحر.

ومنذ حوالى ٥٠ سنة رفع ضابط شرطة دعوى بمصادرة وحرق كل نسخ كتـاب ألف ليلة وليلة، بدعوى وجود عبارات جنسـية، وقد نجح فى إصدار حكم من الدرجة الأولى، ولكن فى الاستئناف تم إلغاء هذا الحكم. أمـا منـذ أكثر من ١٥ سـنة، فقد تمكن رجال يحسـبون على الجامعة وعلى البحث العلمى الحر فى تكفير أحد زملائهم من الباحثين بإحدى

كليات الآداب، فى واقعة غير مسبوقة، ليبدأ بعدها الانحدار إلى أسفل وبسرعة مذهلة أوصلتنا لما نحن فيه الآن، وقام آخرون برفع قضايا للتفريق بينه وبين زوجته على أساس أنه خرج عن الدين، وبدأ مسلسل محاكم الحسبة التى كانت منتشرة فى العصور الوسطى. إنه التفكير الظلامى على أعتاب القرن الواحد والعشرين. ماذا حدث لنا، أهى هجمة تخلفية من قوى الظلام الجاثمة حولنا، أم إنه مد عشوائى قد نبت خطأ فى تلك الفترة؟

فى كتاب بعنوان «مصر التى لا تعرفونها» لمؤلفه د. وسيم السيسى، أخذ فى الدفاع الحار عن مصر الفرعونية من بعض التهم المنتشرة الآن عن تلك الحضارة الرائدة. وفى دفاعه قال إن المصريين القدماء كانوا يعبدون الواحد الأحد، ودليله على ذلك الكتابة على الهرم الأكبر «أنا واحد ليس لى كفوا أحد». فهل عبادة الواحد الأحد هى التى جعلتهم يبنون تلك الحضارة العظيمة؟. لكن من المعلوم أن قاطنى المنطقة العربية كلهم يؤمنون بالله الواحد الأحد، رغم هذا لا يوجد تقدم أو تطور عندهم. ونفى الكاتب أن يكون المصرى القديم قد جعل من النيل إلها وسرد الكثير من الأدلة على ذلك. وتطرق الكاتب فى كتابه إلى فن التحنيط ومعرفة نوع الجنين فى بطن أمه قبل الولادة، حتى أن موضوع الهندسة الوراثية كان للمصريين القدماء لهم باع فيه. ورغم أنه يسرد حقائق وأسانيد علمية من أجل الدفاع عن الحضارة المصرية القديمة وكأن تلك الحضارة مدانة أو عليها تحفظ. تلك الحضارة التى أذهلت العالم حتى يومنا هذا تحتاج فى مجتمعاتنا لأحد يدافع عنها، تلك الحضارة التى سئم الغرب من البحث ورائها فى فن التحنيط ومازال لغزا حتى اليوم، وتعامد الشمس

على وجه الآلهة فى معبد رمسيس الثانى بأبو سمبل، لم نقدر على فك طلاسمه حتى يومنا هذا.

ولكــن يمكن القول إن الكاتب على حق لأن هناك نوعا من التغريب لتلــك الحضــارة الآن. وحتى ذلك الدفاع مثل الحــرث فى المحيط فلا سامعا ولا قارئا ولا مستجيبا. لأن كلمة فراعنة الآن وفى عقول الكثيرين مرتبطــة بالكفر والظلم والطغيان، ومن يريــد أن يغير ذلك فإنه يتعرض للوم الشديد. هل رأيت شعوبا تلعن أجدادها مثلنا، حتى تاريخنا القديم درجــة الخلاف والاختلاف فيه تصــل إلى حد النقيض. وحتى تاريخنا الحديــث أيضا درجة اختلافنا فيه تصــل إلى حد النقيض أيضا. عندنا زكام تاريخــى فلا نرى تاريخ أجدادنا على حقيقته. والســبب الحقيقى فى هذا الزكام التاريخى، الذى هو الجهل، هو محاولة لتغريب الوطن، أو حرقه أو حرثه حتى يصلح للزرع الجديد الآتى من الشرق أو الغرب. إن تاريــخ مصر الفرعونــى إرث جميل يجب أن يكــون لنا فيه الفخار والقدوة الحسنة من أجدادنا ولا نكرههم أو نلعنهم. إننا فى زمان صعب نشب فيه الانهيار، فإلى متى، ومتى نتحرر من أفكار دمرت كل جميل فى حياتنا؟!

فــى رحلتى لمدينة ميلبورن باســتراليا فى يوليــو ٢٠١١ لحضور مؤتمر رقم ٢٥ للاتحاد الدولى للجيوفيزياء، راعنى هذا الشــموخ الذى يحيط باســم مصر هناك، كل الإعلانات فــى المؤتمر الذى حضرته، كانــت عن توت عنخ آمون، تحمل صوره وصور مصر فى كل مكان، ملــك مصر الخالد تربع على عرش تلــك البلاد، فى متحف ميلبورن الــذى يحوى معرض توت عنخ آمون تجد الطوابير بالســاعات لنيل

شـرف الدخول، حتـى مؤتمرنا وهو الدورة رقـم ٢٥ للاتحاد الدولى لجيوفيزيـاء والمسـاحة، والذى كان يحضره حـوالى ٤٠٠٠ عالم من شـتى بقاع الأرض كان كل همهـم توفير الوقت لزيارة المتحف ورؤية ملكنـا الخالد. هؤلاء العلماء الأفذاذ يقفـون حيارى من روعة وشموخ ما يرون من حضارتنا المصرية القديمة العظيمة. وأشـير هنا أن المؤتمر يتكـرر مـرة كل أربع سـنوات فى مدينة مختلفـة وبلد مختلف. إن اختيـار المدن التى يعقد فيها يكون بالانتخاب بين المدن المنافسـة، وقد تقدمت مدينة ميلبورن، أثناء دفاعها لنيل شرف التنظيم، بملف وعرض سينمائى لإمكانات ميلبورن فى استضافة المؤتمر رقم ٢٥، كان مـن ضمن العرض أن مدينة ميلبورن سـوف تحوى معرض توت عنخ آمـون أثناء فترة انعقـاد المؤتمر، وكانت تلك نقطة فاصلة لقبول ملف مدينة ميلبورن لتنظيم هذا الحدث الكونى العلمى الرائع. هم يتاجرون ببضاعتنا، ونحن نحتقر بل نلعن بضاعتنا. هل تتصور أنه من الممكن اسـتضافة القاهرة لأحد تلك المؤترات أم أنه حلم بعيد المنال أو يكاد يكون مستحيلا فى الوقت الحالى؟!

كان عنوان هذا المؤتمر هو «الأرض على الحافة» وكانت المحاضرات عن التغير المناخى وزيادة منسـوب ميـاة البحار والمحيطات، والزلازل والبراكين والتسـونامى، وثورات الشمس، وغزو الفضاء، ودراسة الأرض مـن الفضاء، إلى آخره من الموضوعات التى كانت تقول للعالم إن الأرض وحمايتها هو هدفنا، نحن نخطط للعالم ومسـتقبله. تلك هى المؤتمرات الدولية وهذا هدفها، وليس مثل مؤتمراتنا التى تكون تقليدا للغرب لا أكثر ولا أقـل. ولقـد قدم مؤلف هذا الكتاب ورقـة بحثية عن التغير المناخى

المصاحب للانفجارات الشمسية الدورية، وكيف أن تلك الانفجارات الدورية لها تأثير دورى على الغلاف الجوى الأرضى وعلى الأرض ككل وخاصة أن تلك المواد التى تخرج من الشمس وإشعاعاتها وتصل إلى الأرض تكون مشحونة وتؤثر بصورة مباشرة على أجهزة الملاحة الجوية وسفن الفضاء وعلى الاتصالات بصورة كبيرة، لحد التدمير الكامل فى بعض الأحيان. وعملية التنؤ بها هام جدا لحماية الثروة البشرية، وأيضا لحماية الإنسان والحيوان والنبات على سطح الأرض.

○○○

الصراع بين الخير والشر

منذ فجر التاريخ وصراع البشر بين الخير والشر مستديم، هناك من ينحاز إلى الخير وآخر يسيطر عليه الشر، ومن هنا نشأ الخلاف والاختلاف بين الحضارات وأيضا بين بنى الوطن الواحد. إلا أن الخير هو المنتصر فى النهاية بدليل استمرار الحياة وسيادة الإنسان على الأرض. على أن البعض الآخر يرى أن الشر هو السيد وهو الغالب فى النهاية بدليل الموت؛ وهى الحقيقة التى تطالعنا كل يوم. ناهيك عن حقيقة نهاية الكون كله.

العلاقة بين البشر تستمد توجهاتها من العلاقة بين الخير والشر. وهذا الصراع أزلى بين منظومتى الخير والشر، ومعظم التيارات الدينية والسياسية تستمد مفاهيمها وقيمها الأساسية من تلك المنظومتين لتحشد المناصرين لهما. ثنائية الخير والشر يقابلها نظام رادع فى الدين هو الجنة والنار لأن الإنسان بغريزته لايمكن أن يتبع توجهات معينة دون أن تحقق مصالحه ورغباته بالدرجة الأولى؛ وإلا فإنها تدرج ضمن إطار القدر. حينئذ يعتبر القدر هو المحدد لتوجهات الإنسان نحو قيم الخير أو الشر، وبهذا فإنه غير مسئول عن أفعاله لوجود قوى خفية تحدد اتجاهه وتحكم سلوكه وأداءه فى الحياة. فى حين أن النظام الرادع وما تحتكم إليه منظومة قيم الخير والشر يؤسس لمبدأ تحقيق المصالح الذاتية للإنسان وتلك المصالح تكون عالية الفائدة فى العالم

الآخـر لمن يلازم قيم الخير، حيث يثاب عليهـا بالجنة وما تحقق من رغبـات لاحدود لها. وبالمقابل فإن المعتنق لقيم الشـر يسـعى للحصول علـى منافع آنية فى الحياة الدنيا وعلى حسـاب الآخرين ويعاقب فى العـالم الآخر نتيجة أفعاله وتوجهاته لقيم الشـر بعقاب شـديد، والنار هـى المصير الذى ينتظره فى العالم الآخر. مازالت ثنائية الخير والشـر تعكس سلسلة من التوجهات الثنائية مثل الجنة والنار، والعدل والظلم، والحب والكراهية، والحرية والقهر، والديمقراطية والاستبداد..إلخ.

الخير والشر عند الفلاسفة القدامى

الفيلسوف اليونانى أفلاطون «Plato» (٤٢٨- ٣٤٨ ق.م) بحث فى فلسفة الخير والشر لينشد الفلسفة المثالية والمجتمع المثالى وقال «ان جميع المعقولات تستمد من الخير الأعلى وجودها وماهيتها، وإن الخير الأعلى أسـاس العلم والحقيقة. ومع أن كلا من المعرفة والحقيقية جميل جدا، فمـن الصـواب أن نقول إن صورة الخير الأعلى تمتـاز عليهما وتفوقهما جمالا». أفلاطون فيلسوف ورياضى يونانى، وضع الأسس الأولى للفلسفة الغربية والعلوم. وأفلاطون يعتبر مؤسـس لأكاديمية أثينا التى تعتبر أول معهد للتعليم العالى فى العالم الغربى، وكان تلميذا لسقراط وتأثر بأفكاره كمـا تأثر بإعدامه الظالم، وتتلمذ على يده الفيلسـوف العظيم أرسـطو. إن نبوغ أفلاطون وأسـلوبه ككاتب ظهر فى محاوراته السـقراطية،نحو ثلاثـين محاورة، والتـى تتناول مواضيع فلسـفية مختلفة مثل المعرفة، والمنطق، واللغة، والرياضيات، والميتافيزقا، والأخلاق والسياسـة. كان أفلاطـون يعنى بموضوع المعرفة ليبين أنواعها المختلفة ويرتبها حسـب قيمتهـا فى الكشـف عن الحقيقة ويهتـم اهتماما بالغـا بتعريف العلم

الفلسفى اليقينى والتمييز بينه وبين أنواع المعرفة الأخرى الشائعة عند معاصريه. ونقطة البداية فى نظرية المعرفة الأفلاطونية تتلخص فى إثارة الشك فى العالم الحسى، وذلك حتى يعلم السائر فى طريق التفلسف أن العالم الذى يعيش فيه هو عالم زيف وخداع.

ويقيم أفلاطون تصنيفا لأنواع المعرفة فى العلوم المختلفة على أساس تفرقته بين العالم المرئى والعالم المعقول فيسمى المعرفة التى تتناول العالم الحسى بالظن. أما المعرفة التى تتناول اللامرئى والمعقول بالعلم أو بالتعقل. وقد قسم ذلك إلى أربعة أقسام. القسم الأول يرمز للأشباح والظلال المنعكسة عن العالم المحسوس والمعرفة التى تتناولها يسميها وهما. والقسم الثانى يشير لموجودات العالم الحسى المرئى ويسميها ظنا. القسم الثالث هو التصورات الرياضية ويسميها فكرا استدلاليا. والقسم الرابع يشير إلى المعقولات التى هى أقرب إلى المبادئ والتى هى موجودة بغير حاجة للمحسوس فهى عالم المثل ويسميها التعقل. وكان يرى أن أهم مستويات المعرفة التى يعنى بدراستها ونقدها هى الخبرة الحسية والاستدلال العقلى ثم المعرفة الحدسية التى هى رؤية مباشرة لعالم المُثل والقيم.

ثم نأتى إلى سقراط «Sōkrátēs» وهو فيلسوف يونانى (٤٦٩-٣٩٩ ق م) يعتبر مؤسس الفلسفة الغربية، لم يترك سقراط كتابات خاصة به وكل ما نعرفه عنه مستقى من خلال روايات تلامذته. وخاصة أفلاطون، وهو مشهور بإسهاماته فى مجال علم الأخلاق. وإليه تنسب مفاهيم السخرية السقراطية والمنهج السقراطى الذى مازال مستخدما فى مجال واسع من النقاشات، كما أنه نوع من البيداجوجيا (علم التربية) التى بحسبها تطرح مجموعة من الأسئلة ليس بهدف الحصول على

إجابات فحسب، وإنما كوسيلة لتشجيع الفهم العميق للموضوع المطروح. إن «سقراط»، كما وصفه أفلاطون، هو من قام بإسهامات مهمة وخالدة لمجالات المعرفة والمنطق وقد ظل تأثير أفكاره وأسلوبه قويا حيث صارت أساسا للكثير من أعمال الفلسفة الغربية التى جاءت بعد ذلك. كان سقراط يكرس نفسه للشىء الذى يعتبره أهم مهنة وهو مناقشة الفلسفة، وقبل أن يحكم عليه القضاة بالإعدام قال هذا الفيلسوف العظيم «لن أرفض أو أهجر فلسفتى إلى أن ألفظ النفس الأخير». عمل سقراط على تقويض المفهوم الجماعى الذى انتهجه الآخرون والذى شاع باليونان خلال تلك الفترة، وهو «إن القوة تصنع العدل». وكان يجب عليهم مراعاة تحقيق العدل والسعى وراء الخير، وأن يكون العدل أساس الملك. ومحاولاته لتغيير مفهوم العدل الذى ينتهجه الأثينيون كانت السبب وراء الحكم عليه بالإعدام، وقيل إن محاولات سقراط الاتصال بالشعب وإقناعه بحقوقه كان الفيصل فى حكم الإعدام، كونه يحث المجتمع على الثورة ضد الحكام الظالمون. ووفقا لرواية تلميذه «زينوفون» فقد ألقى «سقراط» دفاعا جريئا أمام هيئة المحلفين، والذى يوضح قسوة العهد القديم وكيف كان «سقراط» سعيدا لأنه سيهرب من هذه القسوة بإعدامه. ورغم أن سقراط كانت لديه الفرصة للهرب، حيث كان بإمكان تابعيه أن يقدموا رشوة لحراس السجن. لكنه اختار البقاء لعدة أسباب هى: لأنه كان يعتقد أن الهروب قد يشير إلى خوفه من الموت وهو الخوف الذى اعتقد بأنه لا وجود له لدى أى فيلسوف حقيقى.ولأنه لو هرب من أثينا، لن تلقى تعاليمه أى نجاح فى مدينة أخرى لأنه سيستمر فى محاورة كل من يقابلهم وسيثير استياءهم بالطبع. ولأنه وافق- على

نحو متعمد- على أن يعيش بالمدينة ويخضع لقوانينها، فهو قد أخضع نفسه ضمنيا لاحتمالية أن يتهمه أهل المدينة بارتكاب الجرائم وأن يدان من قبل هيئة المحلفين. ولو قام بما ينافى ذلك، يعنى أنه يخرق العقد الاجتماعى الذى وقعه مع الدولة وبالتالى سيسبب ضررا لها ومثل هذا التصرف ينافى المبادئ التى ينتهجها.

ورفض سقراط الهروب ليعلى كلمة العدل ويقول إن القانون الظالم يجب أن يعدل بقانون عادل، أما الهروب فهو كسر للقانون وكسر القانون يؤدى إلى فوضى. وبهذه الأفكار والنهاية خُلِّد اسم سقراط على مر التاريخ أما جلاديه فمكانهم مزبلة التارخ.

أرسطو أو أرسطاطاليس Aristatles (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) فيلسوف إغريقى وتلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. كتب فى العديد من المواضيع، بما فى ذلك علوم الفيزياء والميتافيزيقا والشعر والمسرح والموسيقى والمنطق والبلاغة والسياسة والحكومة والأخلاق والبيولوجيا وعلم الحيوان، جنبا إلى جنب مع أفلاطون وسقراط (معلم أفلاطون). ويعد أرسطو واحدا من أهم الشخصيات فى تأسيس الفلسفة الغربية. كان أول من أنشأ نظام شامل للفلسفة الغربية، ويشمل الأخلاق وعلم الجمال والمنطق والعلم والسياسة والميتافيزيقا. وجهات نظر أرسطو حول العلوم الفيزيائية استمرت فى العصور الوسطى، وامتد تأثيرها إلى عصر النهضة، على الرغم أنه قد حل محلها قوانين كوبرنيكوس ونيوتن فى الفيزياء. فى الميتافيزيقا فإن مذهب أرسطو كان له تأثير عميق على الفكر الفلسفى واللاهوتى فى التقاليد الإسلامية واليهودية فى القرون الوسطى ولا يزال تأثيره فى اللاهوت المسيحى مستمرا، وخاصة الأرثوذكسية الشرقية،

والتقاليد النصرانية للكنيسة الكاثوليكية. ولا تزال جميع جوانب فلسفة أرسطو موضع دراسة أكاديمية نشطة حتى اليوم.

كان بطليموس فلكيا وجغرافيا شـهيرا وهو مصرى من أصل إغريقى (٩٠- ١٦٨ ميلاديـة) نشـأ فى الأسـكندرية ودرس فيها. ترجح بعض المصـادر أنه من أصـل إغريقى ولد فى مصر، فى حين أن رسـالة عثر عليهـا بالعربية تصفه بالصعيدى المصرى فى إشـارة إلى أن أصوله تعود إلى جنوبى مصر. توفى فى الأسـكندرية سـنة ١٦٨ميلادية. ومن أشهر مؤلفاته «المجسـطى» و«الجغرافية» ولـه نظرية فلكية مفادها أن الأرض لا تتحرك وأن الفلك يدور حولها. وبقيت هذه النظرية سارية حتى جاء كوبرنيكوس فى القرن السادس عشر وأثبت دوران الأرض حول الشمس. وقد رسـم فى كتابه «الجغرافية» أول خريطة للعـالم القديم، كما وضع أول جـداول لدرجات الطول والعرض لمواقع عدد من الأماكن المشـهورة فى عصره مع خرائط جغرافية لها. وقد بقى هذا الكتاب المرجع الوحيد المعتمـد حتى عصر النهضة الأوروبية. كما ألـف بطليموس كتبا أخرى فى الضـوء والتنجيم وكان لهما أثر كبير فى معاصريه. وقد ترجم العالم العربى حنين بن إسـحاق كتابى المجسـطى والجغرافيـة، ثم نقحهما العالم العربى ابن سينا. من أشهر كتبه الأطروحة التنجيمية والتى حاول فيها تكييف الأبراج النجمية إلى فلسـفة أرسـطو فـى عصره وكان هذا الكتاب أساس التنجيم الذى يتبعه المنجمون منذ أقدم العصور.

كانت هناك علاقة مباشرة بين الحضارة الفرعونية وكل من الحضارة اليونانيـة والرومانية وقد تأثرت تلـك الحضارتان بالحضارة الفرعونية، وقد انتقلـت العلـوم والفنون والفلسـفة مـن مصر إلى أوروبـا عن طريق

الرعيل الأول من العلماء والفلاسفة اليونانيين والرومانيين وخاصة سقراط وأفلاطون وأرسطو. والحضارة الحالية ما هى إلا استمرار لتلك الحضارات. رغم أن التنجيم نوع من أنواع التخلف والردة ولكنه كان مقبولا فى تلك الفترة التى لم تصل سطوة العلم فيها كما هى الآن.

الشاعر والفيلسوف الإيطالى من القرن الثالث عشر «دانتى أليجييرى Dante Alighieri» صاحب الكوميديا الإلهية المستوحاة من كتاب «رسالة الغفران» للعبقرى العربى أبى العلاء المعرى الذى سوف يأتى ذكره بعد ذلك. يقول دانتى «إن الاتجاه الطبيعى للإنسان، يجب أن يكون نحو الخير لكن غريزته تدفعه نحو الشر. لذا فإنه يثاب على الخير ويعذب على الشر». إن منظومتى قيم الخير والشر. تحشد كل منهما إلى جانبها سلسلة من المنافع والمصالح، ففى الأولى هناك سلسلة من الوعود بعالم آخر ينتفع منه فقط مناصريه ويعاقب المناوئين له أشد العذاب. وفى الثانية هناك سلسلة من المنافع والمصالح الدنيوية الآنية التى لاتؤمن بالوعود القادمة من العالم الآخر. لقد أسس أفلاطون الفلسفة المثالية وعرف الفلسفة بأنها «السعى الدائم لتحصيل المعرفة الكلية الشاملة التى تستخدم العقل وسيلة لها وتجعل الوصول إلى الحقيقة أسمى غاياتها».

وتجد أن العالم الدنيوى، عالم ملموس وحقيقى ويتوجب استغلاله فى أقصى الحدود لتحقيق المصالح وتلبية الرغبات الآنية. فى حين أن العالم الآخر، هو عالم غير ملموس يعلن عن نفسه من خلال الوعود بتحقيق المصالح وتلبية الرغبات ويعاقب الخارجين على مبادئه وليس له دلالة مادية فى العالم الدنيوى. هكذا فإن توجهات منظومتى قيم الخير والشر تحشد الحجج والبراهين لمناصريها لأجل

كسب المزيد من المناصرين وخلق جبهة قادرة على خوض الصراع مع الجبهة المضادة.

إن معظم المناصرين لمنظومة قيم الخير، هم من عامة الناس غير القادرين على تحقيق مصالحهم الدنيوية، والذين يشعرون فى اللاوعى إنهم مضطهدون ومعرضون للاستغلال من أصحاب التوجهات الشريرة. وهذا لاينفى وجود آخرين ممن يؤمنون، إيمانا مطلقا بقيم الخير وبجدوى الوعود فى العالم الأخر. ولايخلو الأمر ممن يجدون أن قيم الخير تعنى الاحتكام للعقل وعدم استغلال الآخرين لتحقيق رغبات ذاتية، لأن هذا المبدأ بحد ذاته لايتفق والقيم الإنسانية. فى المقابل فإن قسما ليس بالقليل من المناصرين لقيم الشر، هم من أصحاب النفوذ والمال والسلطة والساعين بكل قواهم لتحقيق أكبر قدر من رغباتهم وعلى حساب الآخرين. ويتخذون من قيم الشر مسلكا لتحقيق مصالحهم ورغباتهم الذاتية، ولايؤمنون بالمبادئ المثالية الداعية لإحقاق العدالة والمساواة بين البشر وما تنهل من منظومة قيم الخير توجهاتُها. إن الصراع الأزلى بين منظومتى قيم الخير والشر لم يتوقف عند حدود ما، وإنما هناك دائما حشد مستمر للمبادئ والأعراف التى تفرزها التناقضات والتطورات المحدثة فى التشكيلة الاجتماعية على مدى العصور. وغالبا ما يسقط عدد من مبادئ قيم منظومتى الخير والشر، لأنها لم تعد مقنعة لمناصرى الجبهتين ويحل مكانها مبادئ جديدة قادرة على حشد مناصرين جدد مؤمنين بجدواها فى الصراع.

أبو العلاء المعرى والماسونية

أبو العلاء المعرى (٩٧٣ – ١٠٥٧) شاعر وفيلسوف وأديب عربى من العصر العباسى، ولد وتوفى فى معرة النعمان فى الشمال السورى.

لُقّب برهين المحبسين (محبس البصر ومحبس السجن القصرى أو الاعتزالى) بعد أن اعتزل الناس لبعض الوقت. اشتهر بآرائه وفلسفته المثيرة للجدل فى وقته، وولهه بالحرية والتغنى بها. من أشهرأعماله «رسالة الغفران» أحد الكتب الأكثر تأثيرا فى التراث العربى والعالمى. كتاب يركز على الحضارة العربية الشعرية ولكن بطريقة تمس جميع جوانب الحياة الخاصة، ويحكى فيه زيارة الشاعر للجنة ورؤيته لشعراء الجاهلية العرب هناك، وذلك بعكس المعتقدات الإسلامية أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأكثر ما يثير الاهتمام فى رسالة الغفران هو عبقرية المعرى فى الاستطراد، والفلسفة العميقة، والبلاغة المذهلة. ومن الواضح أن كتاب رسالة الغفران كان له تأثير قوى على دانتى أليجييرى فى كتابه «الكوميديا الإلهية» وذلك لأن الاثنين فى كتابهما زارا الجنة وتحدثا مع الموتى. كان المعرى مشكوكا فى معتقداته، ونددد بالخرافات فى الأديان. وقد يكون أفضل وصف كونه يؤمن بالربوبية وهى قريبة من الماسونية التى انتشرت فى العالم منذ القرن السادس عشر. وقد رفض المعرى استخدام الدين من قبل الخلفاء لفرض سيطرتهم، حيث ظهر من خلال حياة المعرى الكثير من الخلفاء فى مصر وبغداد وحلب الذين كانوا يستغلون الدين كأداة لتبرير وتدعيم سلطتهم والجورعلى شعوبهم. وانتقد المعرى العديد من الفروض مثل الحج، الذى وصفه بأنه «رحلة الوثنى». كما أعرب عن اعتقاده بأن طقوس تقبيل الحجر الأسود فى مكة المكرمة من هراء الأديان التى لم تنتج سوى التعصب الأعمى والتعصب الطائفى وإراقة الدماء لإجبار الناس على معتقداتهم بحد السيف. والغالبية العظمى من المسلمين غير مرحبين بأفكاره الثورية.

المعرى رفـض الوحى الإلهى وكانت عقيدته هى عقيدة الفيلسـوف والزاهـد، الـذى يتخذ العقل دليلا أخلاقيا لـه، والفضيلة هى مكافأته الوحيدة، وذهب فى فلسـفته التشاؤمية إلى الحد الذى أوصى فيه بعدم إنجـاب الأطفال كى يجنبهم آلام الحياة. وفـى مرثاة ألفها عقب فقده لقريـب له جمع حزنه على قريبه مع تأملاته عن سـرعة الزوال وقال: « خفـف الوطء مـا أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجسـاد». ومن ضمن قصائـد المعبرّة عـن وجهة نظره الإلحادية: «هفـت الحنيفة والنصارى ما اهتـدت.... ويهود حارت والمجوس مضللة....اثنان أهل الأرض ذو عقـل بـلا.... دين وآخر ديّـن لا عقل له». إن أبو العـلاء المعرى كان فيلسـوفا ذا طابع خاص وسـبق أهل الغرب فى ماسـونيته. ويجب أن نعـترف أن فلاسـفة الغرب قد أخـذو منه، ليس فقط حسـه القصصى كمـا صنع دانتى فـى الكوميديا الإلهية، بل من فكرة مثل الماسـونية، بل كانـت أفكاره أكثر تحررا من الماسـونية الحديثة التى نشـأت على أفكارها دول مثل الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وإسرائيل.

غالبـا ما اتفقـت أفكار أبى العلاء المعرى فـى حبه للحرية وكفاحه من أجلهـا كل من بنيامين فرانكلـين (١٧٠٦ – ١٧٩٠) Benjamin Franklin وهـو مـن أهم وأبرز مؤسسـى الولايات المتحـدة الأمريكية ومجددى الماسونية، وأيضا جورج واشنطن (١٧٢٣– ١٧٩٩) أول رئيس للولايات المتحدة، وهما من الماسونيين الأوائل. من ضمن أقوال فرانكلين الشهيرة «من يضحى بالحرية من أجل الأمن لا يستحق أى منهما».

الماسـونية «Mason» مـن أبـرز المنظمـات الفكرية جـدلا لدرجة أنـه فى سـنة ١٩٧٩ أصدرت جامعـة الدول العربية قـرارا ينص على

«اعتبار الحركة الماسونية هى حركة صهيونية، لأنها تعمل بإيحاء منها لتدعيم الأفكار الصهيونية، كما أنها تساعد على تدفق الأموال على إسرائيل من أعضائها الأمر الذى يدعم اقتصادها ومجهودها الحربى ضد الدول العربية». وفى سنة ١٩٨٤ أصدر الأزهر فتوى كان نصها «إن المسلم لا يمكن أن يكون ماسونيا لأن ارتباطه بالماسونية انسلاخ تدريجى عن شعائر دينه ينتهى بصاحبه إلى الارتداد التام عن دين الله».

والماسونية معناها اللغوى هى «البناؤون» أو «البناؤون الأحرار». هى عبارة عن منظمة عالمية يشترك أفرادها فى أفكار واحدة فيما يخص الأخلاق والميتافيزيقا وتفسير الكون والحياة والإيمان بخالق إلهى، ويتهم البعض الماسونية بأنها «من محاربى الفكر الدينى وناشرى الفكر العلمانى». والماسونية تعنى هندسة باللغة الإنجليزية ويعتقد البعض أن فى هذا رمزا إلى مهندس الكون الأعظم. ومنهم من ينسبهم إلى «حيرام أبيف» الذى لقب بأبو المعمار الذى أشرف على بناء هيكل سليمان. ومنهم من ينسبهم إلى فرسان حراس المعبد الذين شاركوا فى نشوب الحروب الصليبية. حرف G هام فى الماسونية، ويختلف الماسونييون فى تفسير معناه فالبعض يفسره بأنه الحرف الأول لكلمة الخالق الأعظم «God» أو «الله»، ويعتقد البعض الآخر أنه أول حرف من كلمة هندسة Geometry. ويذهب البعض الآخر إلى تحليلات أعمق ويرى إن حرف G مصدره كلمة «gematria»، والتى هى ٣٢ قانونا وضعه أحبار اليهود لتفسير الكتاب المقدس فى سنة ٢٠٠ قبل الميلاد. يردد الماسونيون كثيرا كلمة «المهندس الأعظم للكون» التى تشير إلى الله، إلا أن بعضهم يردها إلى «حيرام أبيف» مهندس هيكل سليمان.

فى سنة ١٧٢٣ كتب جيمس أندرسون «دستور الماسونية» وكان أندرسون ماسونيا بدأ حياته كناشط فى كنيسة اسكتلندا وقام بنيامين فرانكلين بعد ١١ سنة بإعادة طبع الدستور فى عام ١٧٣٤ بعد انتخابه زعيما لمنظمة الماسونية فى فرع بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية. وكان فرانكلين يمثل تيارا جديدا فى الماسونية وأضاف هذا التيار عددا من الطقوس الجديدة لمراسم الانتماء للحركة وأضاف مرتبة ثالثة وهى مرتبة الخبير Master Mason للمرتبتين القديمتين، وهما المبتدئ وأهل الصنعة (الخبير).

يصف الماسونيون حركتهم بمجموعة من العقائد الأخلاقية مثل الحب الأخوى والحقيقة والحرية والمساواة، وأن تطبيق هذه المبادئ يتم على شكل طقوس يتدرج العضو فيها من مرتبة مبتدئ إلى مرتبة خبير، ويتم التدرج فى المراتب اعتمادا على قدرة العضو على إدراك حقيقة نفسه والعالم المحيط به وعلاقته بالخالق الأعظم الذى يؤمن به بغض النظر عن الدين الذى يؤمن به العضو. استنادا على الماسونيين، فإن الطقوس المستعملة والتى يصفها البعض بالمرعبة ماهى إلا رموز استعملها البناؤون الأوائل فى القرون الوسطى ولها علاقة بفن العمارة والهندسة. يعتبر الزاوية القائمة والفرجار من أهم رموز الماسونية وهذا الرمز موجود فى جميع مقرات الماسونية إلى جانب الكتاب المقدس الذى يتبعه ذلك المقر. ومن ضمن رموزهم أيضا الهرم ونجمة داوود السداسية. وعند اعتماد عضو جديد يعطى له الحق باختيار أى كتاب سماوى يعتبره ذلك الشخص مقدسا. يستخدم الماسونيون بعض الإشارات السرية ليتعرف بواسطتها أى عضو فى المنظمة على العضو الآخر وتختلف هذه الإشارات من مقر إلى آخر.

الماسونية لا تعتبر نفسها ديانة أو معتقدا بديلا للدين، وتعتبر الماسونية نظرتها عن فكرة الخالق الأعظم مطابقة للأديان السماوية. حسب الفكر الماسونى يعتبر العضو حرا فى اختيار العقيدة، التى يراها مناسبة له للإيمان بفكرة الخالق الأعظم بغض النظر عن المسميات أو الدين الذى يؤمن به الفرد. وقد تم قبول أعضاء حتى من خارج الديانات السماوية مثل البوذية والهندوسية. يصر الماسونيون على أنهم لايقبلون عضوية أشخاص قد ارتدوا عن دين معين ولا تشجع الناس على اتباع دين معين. وتُعتبر الماسونية منظمة رجولية فى بدايات تكوينها ولم يسمح للسيدات بالانضمام للماسونية القديمة إلا فى حالات نادرة، وفى سنة ١٨٨٢ بدأ الفرع فى فرنسا بقبول السيدات. وفى عام ١٩٠٣ بدأت الفروع الماسونية فى الولايات المتحدة بقبول السيدات فى صفوفها. وبحلول عام ١٩٢٢ كانت هناك ٤٥٠ مقرا للسيدات الماسونيات فى العالم. من المعلوم أنه وفى نفس العام سمح للسيدات الأمريكيات فى التصويت فى الانتخابات وترشيح أنفسهن، وهن يعتبرن متخلفات عن أقرانهن فى أوروبا أو حتى فى مصر، التى سمحت للسيدات بالتصويت فى أول برلمان وانتخابات فى مصر سنة ١٨٦٦ ميلادية.

يعتبر البعض من المناهضين للماسونية وبعض المؤمنين بنظرية المؤامرة أن المنظمة فى حقيقتها عبارة عن «منظمة سياسية واقتصادية هدفها الرئيسى هو الهيمنة على العالم عن طريق السيطرة على وسائل الإعلام والاقتصاد العالمى والتغلغل فى صفوف الكنيسة الكاثوليكية». وحسب «الموسوعة الكاثوليكية الحديثة» فإن طوائف مثل شهود يهوه والمورمون وتيارات مثل الشيوعية والاشتراكية والثورة الفرنسية

وحركة مصطفى كمال أتاتورك ماهى إلا تيارات تفرعت من الماسونية. ويعتبر البعض قيام الماسونية بنشر فكرة أن الخلاص أو النجاة بالمفهوم الدينى يمكن تحقيقه من خلال أعمال الفرد الحسنة فقط، تعتبر إنكارا لجميع عقائد الديانات السماوية التى لها شروط أخرى للخلاص أكثر تعقيدا من مجرد كون الشخص يقوم بأعمال جيدة. يوحنا بولس الثانى بابا الفاتيكان سنة ١٩٨٣ قال «لايمكن أن تكون كاثوليكيا وماسونيا فى نفس الوقت». يعتقد الكثير أن أقوى دولة علمانية وهى الولايات المتحدة مبنية أساسا على المفاهيم الماسونية، حيث أن ١٣ ممن وقعوا على دستور الولايات المتحدة و١٦ من رؤساء الولايات المتحدة ماسونيون منهم جورج واشنطن وبنيامين فرانكلين.

الشاعر والصحفى اللبنانى إبراهيم اليازجى (١٨٤٧ – ١٩٠٦) الذى عاش فى مصر وعمل كرئيس تحرير جريدة النجاح سنة ١٨٧٢ وأسس مجلة الضياء، كان ماسونيا، وقد كتب قصيدة توضح جانب من جوانب أفكاره الماسونية: «الخير كل الخير... فى هدم الجوامع والكنائس... والشر كل الشر... ما بين العمائم والقلانس... ما هم رجال الله فيكم... بل هم القوم الأبالس... يمشون بين ظهوركم... تحت القلانس والطيالس». الماسونية كانت موجودة فى مصر أيضا منذ عهد محمد على، وانتشرت بصورة أكبر فى عهد الدولة الليبرالية المصرية من سنة ١٩٢٢ وحتى سنة ١٩٥٢. يقول المفكر المصرى الدكتور محمد عمارة «وبعد أن كانت مصر قد ألغت الماسونية وأغلقت محافلها سنة ١٩٦٠، أعادت فى عهد مبارك أندية «الروتارى» و«الليونز»، وهى بدائل الماسونية، فى الانتشار الأخطبوطى فى مصر تحت رعاية زوجة الرئيس

مبارك وأخيها، الذى كانت الأنوار وشجرة عيد الميلاد تضىء قصره فى الكريسماس، حتى لكأنه فى الفاتيكان».

عمران نزار حسين من مواليد سنة ١٩٤٢، هو مفكّر إسلامى من ترينيداد وتوباجو ومن أشد المعادين للماسونية. وتخرج من جامعة كراتشى وجامعة جزر الهند الغربية ودرس فى جامعة الأزهر والتحق بالمعهد العالى للدراسات الدولية والتنمية فى جنيف. ثم عمل فى السلك الدبلوماسى فى وزارة خارجية ترينيداد وتوباغو ولكنه استقال فى عام ١٩٨٥ ليكرس حياته من أجل خدمة الإسلام، عاش فى الولايات المتحدة الأمريكية. قام بتأليف العديد من الكتب عن الإسلام، وكان يلقى محاضرت حول العالم وله محاضرة فى أستراليا عام ٢٠٠٣ تحدث فيها عن أن بعض الدول العربية ستحدث بها ثورات، وبعد محاضرته بثمانية سنوات حصلت الثورات التى توقّعها استنادا على ما يطلق عليه علم آخر الزمان. واتهم عمران حسين الماسونية العالمية – متمثلة فى انجلترا وأمريكا وإسرائيل – سوف تكون وراء تلك الثورات وسوف يستخدمون رصيدهم وخبراتهم فى تجميع الثوار. ولكنه قال إن الثورات سوف تبدأ من الأردن. وهذا لم يحدث بل بدأت من تونس ومصر.

آفة التخلف

استكمالا لمفهوم الخير والشر من جوانب أخرى يقول روبير أوين Robert Owen الشاعر والفيلسوف الإنجليزى من القرن الثامن عشر فى وصفه لفداحة الشر الشخصى أو الشر بمفهومه اليومى بين البشر «من يقع ضحية الشر يفعل الشر بالمقابل» حيث كان يعتقد أن أخلاق الناس (من عيوب وفضائل) هى ثمرة للظروف، ولهذا فهو يرى أن الثورة

الصناعية التى حدثت فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر. وانتقلت إلى باقى أوروبا بعد ذلك، فرضت ظروفا جديدة ساعدت الجميع على تحقيق السعادة. وقد قامت تلك الثورة لتحرر أوروبا وأمريكا من حكم الكنيسة والدين لصالح الدولة المدنية العلمانية. ويعتقد البعض أن تلك الثورة هى أم الثورات مثل الثورة الزراعية، وأن تلك الثورة لن تكتمل إلا بعد أن توحد العالم. وما حدث من ثورات فى الكتلة الشرقية والاتحاد السوفيتى فى نهاية القرن الماضى، وثورات الربيع العربى أو كما يسمونها الخريف الإسلامى، ليس إلا استكمالا للثورة الصناعية لتوحيد العالم.

يقول الأديب المصرى نجيب محفوظ الحاصل على جائزة نوبل فى الأداب سنة ١٩٨٨ «لولا النصر الغالب للخير. ما استطاعت البشرية أن تنمو وتتكاثر وتكون الأمم، وتنتشر وتبدع وتغزو الفضاء، وتعلن حقوق الإنسان، غاية الأمر أن الشر عربيد وصاخب ومرتفع الصوت، لكنه مهزوم فى النهاية».

وللعودة أكثر تحديدا لما هو كائن الآن من خير وشر فى مجتمعنا، فلا نقصد بالتحديد فى هذا المجال الخير والشر الذى ينتشر بين الأفراد، لكننا نقصد الخير والشر الذى يؤثر إيجابا أو سلبا فى المجتمع ككل. بمعنى أنه عندما يقوم أحد الأشخاص بالسرقة فإنه قد فعل شرا وأضر بشخص آخر، وفى الجهة الأخرى، من تبرع بأموال لجهة خيرية لخدمة المجتمع أو حتى لخدمة فرد، فقد قام بخير للجهة الخيرية. يمكن نسمى ذلك بالخير أو الشر المنتشر على المستوى الفردى، وليس له تأثير جماعى ضخم مثل تأثير الشر الناتج عن قوانين وعادات تكبل

المجتمع ككل، أو الخير الناتج من قوانين إيجابية ونظام يسمح بحرية وتقدم المجتمع ككل. ولكننا لا نقلل أيضا من أثر الخير والشر الشخصى أو المنتشر بين الأفراد لأن تفشيه فى المجتمع وبصورة وبائية تجعله يتحول إلى عادات وتقاليد، وبالتالى تؤثر فى المجتمع ككل إن كان خيرا يعم الخير وإن كان شرا يعم الشر. لكن تظل التغيرات العظمى فى أى مجتمع تنتج عادة من تغير النظام بصورة شاملة، مثل التغير الذى يحدث بعد ثورات الشعوب، وقد يساعد هذا على التحضر، إن كان خيرا فيقود إلى تقدم ورقى أبناء هذا الوطن، أو تؤدى إلى التخلف إذا كان الشر هو العربيد السائد فى تلك الثورة.

فى أحيان كثيرة، وعندما يزداد الشر بين الأفراد فى المجتمع الواحد، فإنه يساعد على تغيير أفكار هذا المجتمع ككل لتنمو أعراف تساعد الشر على النمو. وقد تساعد على أن تخرج قوانين تحرم الإنسان من الحرية السياسية أو حرية التعبير، أو أى حريات أخرى، ويبدأ الشر الذى يتسلط على المجتمع ككل بأفكار هدامة. لذا عندما يزداد الشر بين الأفراد بصورة كبيرة حتى يتحول إلى النواة الأولى للشر فى المجتمع ككل، ويتحول بعد ذلك إلى قوانين ولوائح شريرة تدمر المجتمع ككل. إذا ترك لبرلمان ما لدولة ما يصمم ويشرع قوانين شريرة لخدمة نفر من الناس، أو لتكبيل حرية الغالبية لمصلحة القلة، إنما يكون هذا هو المعول الذى يؤدى إلى هدم تلك البلد شيئا فشيئا. قد يستمر هذا لسنوات طويلة، ولكن لابد له أن ينتهى. فالشر لابد من أن يندثر يوما ما بعد طول ظلام لأن الطبيعة البشرية ونواميس الطبيعة لا تقبل بقاء الشر على الدوام.

إن التأمل العميق فى موضوع الشر هام جدا لمعرفة كيف أن المجتمع قد وصل إلى أى درجة من التخلف والجهل، وذلك نتيجة لأفكار مريضة مغلوطة وتقاليد بالية تقود المجتمع إلى أقصى درجات التخلف. من المهم أن نعترف بأن معايير العصور الوسطى ليست سائدة الآن، فيمكن أن يكون الخير قديما هو عين الشر الآن، ويمكن أن يكون الشر فى العصور الوسطى هو نفسه الآن أساس الخير. إن ترسيخ فكرة العودة بالمجتمع إلى العصور الوسطى، وبأفكار وحضارة العصور الوسطى، رغم التقدم الحادث وغير المسبوق فى العلوم والتكنولوجيا، والتى غيرت البشرية كلها ما عدا مجتمعنا لهو أمر غريب. لذا كان لابد من وقفة ولو فى سطور فى كتاب، ونحاول أن نعلى الصوت لعل وعسى أن يكون هناك صدى، قبل فوات الأوان. رغم أنف أهل اليمين المغالى يظل الخير هو السائد، والإنسانية سوف تمضى رغم بعض النماذج الإنسانية المتعجرفة، والتى تشد البشرية إلى الخلف، لكن التاريخ سوف يذكر أن هؤلاء المنبوذين كان تأثيرهم محدودا، ويبقى الإنسان والخير والتفاؤل حتى نهاية الوجود.

لكن هل سوف تظل آفة التخلف تنخر فى جزء من العالم، ويتحول باقى العالم إلى البشرية العاقلة؟. هل سيسمح العالم بأن يظل هذا الجزء منه يعانى من هذه الآفة التى يمكن أن تعيد كل الكرة الأرضية إلى عصور ما قبل التاريخ ؟ أظن أن هذا مستحيل لأسباب عديدة منها مثلا مرض مثل الإيدز أو أنفلونزا الطيور أو الخنازير أو الحمى القلاعية، التى تبيد الحيوانات، إنما تهدد حياة البشرية كلها واحتفاظ شعب بتلك الأمراض يضر بالبشرية جمعاء. وهل انتقال العنف والإرهاب من الدول

المتخلفة إلى باقى دول العالم لتنشر التخلف كان له حدود؟ أو هل أمكن للعالم المتقدم منع هذا الخطر؟. لذا كان لابد وأن يكون هناك علاج لآفة التخلف ومنعه من الامتداد إلى جميع أجزاء الكرة الأرضية. إن روشتة علاج آفة التخلف تنبع من تحويل المجتمعات المتخلفة إلى خلية نحل، وملء كل وقتها بالعمل والكسب وتحويل بلادها إلى بلاد غنية من خلال ضخ مشاريع تنموية تجعل البطالة والبطالة المقنعة تنتهيان تماما، وبذلك يتحول الإنسان تدريجيا من إنسان متخلف جاهل إلى إنسان الآلة. وهذا الإنسان أكثر استئناسا من الإنسان المتخلف الجاهل، وبالتالى يمكن تحويل أفكاره التخلفية من الناحية السوداوية إلى ناحية حب الحياة وحب العمل والتمتع بالكسب والممتلكات وبالتالى يتحول من إنسان يكره الحياة ويحاربها، إلى إنسان يتمتع بالحياة ويحاول أن يحياها ويحبها، وفى خلال عقد واحد على الأكثر، تتحول هذه البلاد من بلاد مستهلكة مصدرة للتخلف والإرهاب إلى بلاد منتجة ومصدرة للهدوء، ومنتجة للإنسان المواكب للعصر الذى يمكن أن يكون مفيدا فى المجتمعات الطبيعية المتقدمة.

إن آفة التخلف مرتبطة ارتباطا وثيقا بالموروثات والتقاليد الاجتماعية وليست مرتبطة بالبيئة الطبيعية. هل يمكن أن تنتهى هذه الحالة بالابتعاد عن الموروثات البالية وأفكار عصور التخلف من العصور الوسطى وما قبلها؟. أم أنه لن يتأتى هذا إلا بإلهاء هؤلاء البشر فى عمل طويل جاد له مردود على حياتهم. يساعدهم على العيش فى حياة رغدة ليشعروا بأنفسهم أن الحياة تستحق أن نحياها لا أن نحاربها. إن تعمير الأرض وإفساح المجال للإنسان العاقل ليبدأ مسيرته على الأرض،

هى من الأفكار الهامة التى تساعد على بقاء وسعادة الجنس البشرى وتساعد على رقيه.

علينا أن ننصح المتطرفين من أهل اليمين المغالى، الذين يقودون مجتمعاتنا إلى الخراب وتثبيت آفة التخلف، أن يكونوا أكثر مرونة عند مناقشة القضايا المعاصرة كالعولمة والأصالة، وعدم التشبث المميت بالرأى، وعدم قبول الرأى الآخر، بل ورفض الآخر. وكأن الإنسانية خلقت فقط من أجل أفكارهم، والكون كله يعمل لصالحهم فقط، وبالتالى ضد كل البشر. تلك هى العنصرية البغيضة. إن إغماض عيوننا عن تلك الأفكار لن يترك فى عقولنا إلا أفكارا مشوهة تضعف حضارتنا فى المقام الأول.

من خلال سرد موضوع الخير والشر فإن مجتمعنا هو الآن فى الجانب الخاسر وهو جانب الشر، حيث إن جانب الخير دائما يكون للبناء والتطوير وتثبيت الحضارة الحديثة على سطح الأرض. فنحن وحسب الأفكار السائدة الآن فى مجتمعنا لنا أفكار تحب الفناء أو الاندحار أكثر من البناء والحياة، وهذا يجعلنا وحدنا واقفين والبشرية جمعاء تسير، فهذا لا يعنى إلا أننا الآن نتجه وبسرعة إلى مساعدة الشر كى يسود.

التاريخ ووقائع الحياة تعطينا دروسا بأن من كان مثل مجتمعنا يجتر العصور الوسطى والماضى قد وقع فى أكبر خطأ يمكن أن يقع فيه بشر، ولن يذكرهم التاريخ إلا بأنهم أناس حاولوا إيقاف عجلة التقدم فداستهم أقدام البشرية المتقدمة إلى الأمام، وسينتصر الخير كالعادة وتستمر الحياة، ويستمر الإنسان ينجب ويتكاثر وينمو، ويكوّن الأمم ويُطور الحياة. فإلى أى مدى سوف نظل فى جانب الشر، هذا الجانب المظلم فى حياة البشر الذى دائما ما ينهزم فى النهاية؟.

إن آفة التخلف ليست مقصورة على مجتمعنا فقط فهى موجودة أيضا فى مجتمعات مثل المجتمعات الغربية، ولكن بنسبة صغيرة يمكن أن تصل إلى حوالى ١٠٪ ولكن فى مجتمعاتنا تصل إلى أكثر من ٨٠٪، وبالنظر إلى قلة عددهم فتأثير المتخلفين فى المجتمعات الغربية محدود تماما، وهم عادة وافدون اليهم من مجتمعاتنا، ولكن فى كل الأحوال هم هناك تحت السيطرة. ولكن المجتمعات العاقلة قد أعلنت الحرب بالفعل على مجتمعات التخلف وتصدير الإرهاب، بصورة عسكرية أو اقتصادية، إلى أن يأتى يوم المصير المحتوم حيث تتطور طرق التنقية البشرية بتنقية الحياة الإنسانية ذاتها دون تدمير أو تلويث البيئة التى يحرصون دائما عليها. وبذلك يكون من السهولة وبدون تكلفة تذكر حصارهم إذا لزم الأمر، من أجل باقى العالم المتحضر أو عالم الإنسان العاقل.

من ضمن عوامل تثبيت التخلف وإدارته فى مجتمعنا يأتى منطق تأويل كل شىء لهدف معروف مسبقا، ولا يهم إن كان التأويل مناسبا وصادقا أم لا. لتبسيط تلك المقولة سوف نسرد فكرة فجة لمعرفة خبايا وضمائر بعض المحللين لأحداث العالم. مثلا قولهم إن الحرب الدائرة الآن ضد المنطقة هى حرب إبادة لاستعمار العالم المسالم الخلوق، الذى يدعو إلى التمسك بالتقاليد القديمة، وفى الحقيقة هذا النداء وهذه الطريقة فى الإدارة ليس لها إلا لهدف واحد هو تثبيت فكرة التناحر وجر المريدين من اليمين المتطرف، وزيادة سلطانهم المزيف، ولتثبيت الأمر الواقع، بل زيادة النعرة التخلفية، حتى يكون هناك سبب لمداومة تثبيت التخلف والدفاع عنه. إن دعاة هذا الفكر يدّعون أنهم هم رجال الخير الذى ينشدون إشاعته لنشر أفكارهم وكسلهم وجهلهم، وهم يعلمون

أن هذا الخير ما هو إلا لهدف نهاية الحياة المتحضرة على سطح الأرض وإعادتها للعصور الوسطى. الغريب أن القاعدة العريضة من المكبوتين والمعدمين والمهمشين يمشون خلف هذه الأفكار بل يمكن أن يضحوا من أجل ذلك بالروح وبالحياة، فتخرج أفكار جديدة للموت السريع والنهاية المحتومة والسعى للوصول إلى الخلود فى الحياة الآخرة.

إن الفكر الظلامى دائما يقدم لنا الحلول حتى نبقى فى الظلام، إنه يستغل حتى أفراح البشر، وذلك لتثبيت أفكارهم الهدامة، ولا يكتفون بالمتاجرة فى أحزانهم فقط. فمثلا بعد نجاح الإنسان المصرى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى عبور خط بارليف، وتغلبه على نفسه وصنع المعجزة ليحول الهزيمة إلى نصر، يأتى الفكر الظلامى ليقول للمصريين لستم أنتم المنتصرين، لقد كان هناك جنود من الملائكة هم الذين حاربوا وانتصروا. والغريب أن يرد الإنسان العادى غير المكترث بالحياة الثقافية فى مصر، بقوله هل الملائكة كانت تتخاذل هى الأخرى لكونها تركت للإسرائيليين ثغرة فى الدفرسوار ينفذون منها؟!

التخلف والوطن

الشعب المصرى رغم التغييب والتهميش منذ أكثر من نصف قرن إلا أن حضارته موجودة تحت جلده يستدعيها وقت المحن، ولم تكن هناك محنة قدر محنة ضياع جزء غالٍ من أرض الوطن وهو شبة جزيرة سيناء فى سنة ١٩٦٧. وكاد الوطن أن يكون مشلولا بسبب خسارة الحرب وضياع هذا الجزء الغالى من الوطن. وقف الشعب صاغرا مناديا بالثأر وقفة رجل واحد، لا صوت يعلو فوق صوت المعركة، وبعد ٦ سنوات وفى ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وفى خلال ٦ ساعات انتصرنا على العدو وعدنا

وعاد جيشنا المصرى إلى سيناء الحبيبة ومسح عار حرب الستة أيام فى ٥ يونيو من ١٩٦٧. إن ست سنوات من عمر الشعوب ليس بالزمن، فهناك شعوب يمكن أن تظل مهزومة عشرات بل مئات السنين، ولكن الشعب المصرى شىء آخر، شعبا صنع قبل ذلك أعظم حضارات الدنيا، فلا يمكن أن يستمر مهزوما لأكثر من ٦ سنوات، شعبا لا يمكن أن يرضى بالذل من أجنبى، ولا يرضى بالذل حتى من ابن وطنه، ولكن صبره يطول عليه قليلا كما حدث فى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، وحين سرقت ثورته، فطن سريعا ليخرج من مستنقع التخلف سريعا. إن هذا الشعب استحق أن يسكن أغلى قطعة أرض على الكرة الأرضية، بل تعتبر ناصية الكرة الأرضية جغرافيا. انظر لخريطة العالم لترى مصر وممرها المائى الفريد يربط الشرق بالغرب، وموقعها على البحرين المتوسط والأحمر وشكل شبة جزيرة سيناء بين خليجى البحر الأحمر، وتكون سيناء الجزء العزيز من الوطن ينتمى إلى قارة أسيا، بينما باقى الوطن الحبيب يقع فى قارة إفريقيا. البحر المتوسط يقع فى شمال أرضنا، وتقع أوروبا فى الشمال وهى التى أخذت من أرضنا الحضارة لتنير الكرة الأرضية بعد ذلك. مساحة أرض مصر مليون كيلومتر مربع، وكأن المقاييس قد عدلت وتغيرت لتكون مساحتنا رقما ثابتا. مصر أم الدنيا حسب الأساطير الأوروبية، فإن الأم المصرية هى التى أنجبت البشر الذين سكنوا أوروبا بعد ذلك، لذا سميت أم الدنيا.

إن ٤٠٪ مما تملكه البشرية من آثار موجود فى تلك الأرض. رغم ما أصاب تلك الآثار من انتهاك وسرقة قد ملأت أركان الدنيا الآن. إلا أن ٤٠٪ مازال على أراضيها، ما من ميدان فى مدن العالم

الرئيسية إلا ويتزين بإحدى مسلاتنا الفرعونية، والتى تقف شامخة عالية تحكى عظمة هذا الشعب العظيم، وهذه الأرض الخالدة. وما من متحف فى بقاع الأرض إلا وبه آثار مصرية فرعونية، بل تجد أن أهم ما تحويه تلك المتاحف هى الآثار المصرية. اذهب إلى متحف اللوفر بباريس لترى بعينك آثارنا تملأ مئات الغرف فى المتحف، لدرجة أنه لو استبعدت الآثار المصرية منه لما أصبح متحفا حقيقيا. ولو زرت المتحف البريطانى أو الفرنسى أو الروسى أو الإيطالى أو فى أى من المدن الأمريكية إلا وتجد آثارنا فاكهة كل متحف. أى مدينة من مدن العالم لا تجد فيها إلا ملء العين والقلب من الآثار المصرية. أحزننى سنة ١٩٨٤ أثناء زيارتى لمتحف الفن الجميل ببوسطن بأمريكا، Museum of Fine Art، أن أجد مومياوات وآثارا ليس لها حصر، والذى تحزن له أن العديد من تلك الآثار كتب تحتها «هدية من الرئيس المصرى جمال عبد الناصر أو أنور السادات أو حسنى مبارك» وتاريخ نقل تلك القطعة إلى المتحف، وكأن هذا التراث الذى طال عمره آلاف السنين ملك لهؤلاء الذين ولدوا فى هذه الفترة الرديئة من الزمن. ناهيك عن بعض المصريين الذين يهربون تلك الآثار. كل ذلك جعلنى أتيقن أن هؤلاء المصريين كانوا لا يقدرون حجم مصر وقيمة مصر، وكانوا أقزاما بجوار هذا الوطن العظيم. إن من يبيع أو يهدى أثار بلاده الخالدة، إنما يرتكب أكثر الجرائم قبحا، ويجب أن يكون عقابه أشد عقوبة وضعت لمجرم على سطح الأرض. تلك مصر التى يتربص بها الأقزام الآن لجرها إلى هاوية التخلف باسم بعض المعتقدات والتقاليد البالية لنصرة جانب الشر فى المجتمع.

لم يترك الظلاميون أى مجال للحوار أو التفاوض، فهم يحرموننا من أن نتحـاور لنلتقى وبدلا من أن نختلف لنأتلف، ونغترب لنقترب. وأن نساعد الكل ولا نحكم على الآخرين حكما نهائيا باتا من واقع موروثات منذ آلاف السنين، وكأن الماضى هو الذى يتحدث ويتحكم فينا، ليرسم المستقبل ويحدد مصير المستقبل.

يجب أن يعلم رجالاتنا أن المستقبل هو الذى يبنى المستقبل، والحاضر يساعد على وجود مستقبل أفضل. إذا رضينا وارتضينا أن نجعل الماضى هو الذى يبنى المستقبل، فيجب أن نترك تلك الحضارة القائمة على العلم بحلوها ومرها، ولا نستخدم وسائلهم الحديثة فى الحياة مثل التنقل بالسيارات أو بالطائرات ونعود للجمال، وأن لا نسكن الفيلات والعمائر ونعود للخيام، ولا نستخدم وسائل الاتصال والإنترنت ونكتفى بالحمام الزاجل، ولا نستخدم وسائل الطب الحديثة ونكتفى بالأحجبة وأدوية العطارين. فى هذه الحالة سوف يكون المستقبل هو تكرار للماضى. وهذا سوف يكون من الصعب تنفيذه فى هذا العصر نظرا لأن سكان بلادنا الآن مئات أضعاف من كانوا يعيشون بهذه الطريقة فى العصور القديمة. إننا انتصرنا فى ١٩٧٣ بالجهد والعلم الحديث والتكنولوجيا وليس ببركات أهل الخطوة من اليمين، ولا ننكر فضل الله.

إن عربة أهل اليمين المتطرف مازالت تحاول جر المستقبل إلى الماضى. وكل محاولة من هذا القبيل تعمق جراح المجتمع والحياة فى هذا المجتمع. لكن مسيرة الخير تقود الأرض إلى الأمام رغم أنف هؤلاء. لقد كان اليمين فى العصور الوسطى هو المسئول عن تخلف أوروبا، وكان وراء إجهاض تجارب كثيرة ناجحة أو على الأقل تعطيلها مثل

تجربة نيكولاس كوبرنيكوس وجاليليو جاليلى فى فهم الكون، ووقوف اليمين المخزى ضدهم منذ أكثر من ٤٠٠ سنة. إن ذلك لم يستمر طويلا وتحرر الغرب من التبعية للجهل، لأن الذى يقود عربة الخير الآن فى الغرب هو العلم، والعلم هو السيد فى ذلك العصر، وبلا منازع.

تجربة الهندسة الوراثية Genetic Engineering والاستنساخ Cloning (أو الاستنسال كما يحلو لبعض المترجمين تسميتها) هى مثال آخر على عناد اليمين فى الغرب حتى الآن فى أواخر معركتهم لنصرة التخلف، والتى تبدو وكأن اليمين قد أجهض تجربة الهندسة الوراثية إجهاضا تاما. لكن الهندسة الوراثية والاستنساخ، سوف تخطو خطوات يصعب إيقافها ويصعب على اليمين دحرها مرة أخرى، ويمكن أن يكون اليمين، وهو الرابح حتى الآن فى هذه القضية، سبب تخاذل العلم نفسه فى تلك الفترة فى البحث والتنقيب فى هذا المجال، وعدم قدرته على حل كل ألغاز الاستنساخ، لكن العجلة دائرة والنهاية محتومة لصالح الهندسة الوراثية والخلايا الجذعية Stem Cells والاستنساخ.

إن كل ما فى إمكان العلم أن يفعله سوف يفعله، يمكن أن تفشل التجارب فى البداية، ولكن بعد الفشل يأتى النجاح. فمثلا استنساخ النعجة دوللى قد تم بعد فشل حوالى ٣٠٠ تجربة. ويجب أن نتنبه لذلك، فالعلم صاحب اليد العليا فى هذا العصر وهو صاحب المعجزات التى حققتها البشرية فى السنوات الماضية، خاصة الخمسين سنة الماضية منها. إن متوسط عمر الإنسان كان لا يزيد عن ٤٠ سنة فى أوائل القرن العشرين والآن وصل إلى أكثر من ٧٥ سنة. من منا لم يستفد بصورة أو بأخرى من التقدم العلمى الحادث الآن، فمن منا اليوم ليس عنده

تليفزيون، أو كاميرا أو لا يستخدم الإنترنت أو التليفون المحمول وغير ذلك من تقنيات الاتصالات. إن التطور المذهل فى صناعة الطائرات غيَّر من وجهة نظر البشرية.

اليمين المغالى دائما لا يعترف بالهزيمة، فبعد تجربة دحر فكرة أن الشمس تدور حول الأرض، راح اليمين فى الغرب يؤكد متباهيا أن تلك كانت أفكاره. وبعد أن عرف الطب نوع المولود وهو فى رحم أمه، أخذ اليمين بفكرة أن المعرفة ليس المقصود منها النوع بل تاريخه وسلوكه بعد الميلاد وحتى الموت. وبعد معرفة الخريطة الجينية للإنسان وإمكان المعرفة والتنبؤ بما يمكن أن يصاب به المولود من أمراض فى مستقبل حياته، أتى اليمين وأخذ تلك الأفكار وقال إنها كانت موجودة منذ آلاف السنين، ولكن البشر لا يفهمون ما يقرأون. بل إن كل اختراع جديد ليس إلا تطبيقا لكلمات اليمين منذ بدء التاريخ ولم يضف العلم والتطور الحضارى شيئا سوى أنه اجتهد لإخراج الكنوز من بحارها اليمينية الثمينة، والغريب أيضا أن رجال اليمين هم أنفسهم لا يبذلون أى جهد لإخراج كنوزهم هذه، ويقولون فليخرج الكنوز من يريد أن يخرجها، لأنهم فى الحقيقة يعرفون أن كنوزهم بالية وحملهم ليس له أى فائدة. يجب أن يقف أهل اليمين المغالى وقفة مع النفس حتى يتم تصالحهم مع الحضارة.

إن الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على تقييم تجاربه وتقييم حياته ونقد نفسه، ومحاولة تطوره حتى يكون أكثر إنتاجية وبالتالى أكثر سعادة. لكن فى حالة اليمين المغالى، ورغم العلم والحضارة، إلا أن ذلك لا نفع فيه، لأنهم أدخلوا أحكاما هم أنفسهم ليس لهم سلطان

عليهـا أو قـدرة على تغييرها. ولتثبيت ذلك يضطـرون أحيانا إلى وصف حكامهم بالمعصومين من الخطأ أو حتى تحريم مراجعتهم، لكونهم أحيانا يسـمونهم رجالا لن يجود الزمان بمثلهم،أو لهم قدسية ما، إلى آخره من عوامـل تقديس الأشـخاص والأفكار، حتى لا يجد بنو البشـر إلا طريقا واحدا وهو الخضوع لليمين المغالى. والبعض منهم يذهب إلى أكثر من ذلك بالتخويف من المسـتقبل المجهول والتذكير بنهاية الحياة ووهن الإنسان فى هذه المجابهة. ويدعو الإنسان إلى الخنوع والرضى بأحط أنواع الحياة، لأن كل شـىء ليس فى يدك، بل المصائب قد تأتى تباعا لو خرجت عن ما نرسمه لك. فتتحول الحياة البشرية إلى طبعة أخرى من الماضى بصورة تبدو حديثة فقط من حيث الشـكل، فوسـائل التنقل تغيرت، لكن العقل هو عقل إنسـان العصور الوسـطى، وأنماط الحياة الأخرى تغيرت، ليس بسـبب العلم والتطـور الحالى فى مجتمعات الغرب، لكن بسـبب ما هو مقسـوم لنا، فنحن عندما نكون أكثر طاعة نكون أكثر تحقيقا للمكاسـب التى تسمى بالدنيوية.

○○○

الاختلاف والوطن

مصر كانت وسوف تظل من أعظم بلاد الأرض رغم كل الهوان الحالى. ففى التاريخ. هى صانعة أكبر وأقدم حضارة عرفتها البشرية. إن مصر حافظت على كونها دولة مدنية منذ أكثر من سبعة آلاف سنة وحتى الآن حول وادى النيل. بل وحافظت على أبعادها الجغرافية على مر السنين. قلما تجد مثل ذلك على مر التاريخ. بل أجزم أن مصر هو البلد الوحيد الذى حافظ على وحدة ترابه ومكانه الجغرافى واستقلاله منذ فجر التاريخ. من ناحية الجغرافيا فمصر هى ناصية الكرة الأرضية بلا منازع. فهى ملتقى العالم أجمع وممر رئيسى للحضارة البشرية. وتتفرد بموقعها بين ثلاث قارات. بل إن أراضيها تمتد على قارتى إفريقيا وأسيا. ومنها خرجت البشرية لتعمير الأرض.

نتذكر ما كتبه السفير السوفيتى بالقاهرة نيكولاى نافيكوف Navigov Nicolae فى كتاب له أثناء وجوده بمصر سنة ١٩٤٣، أثناء الحرب العالمية الثانية. قال عن مصر والمصريين بعد أن زار مدينة الأقصر ورأى آثارها: إن هذا التاريخ العظيم لابد أن يكون لشعب عظيم. وبعد أن حضر عرض مسرحى فلكلورى بمدينة الأقصر قال «دهشت أن أرى الشاخصين أمامى على المسرح. وكأن الرسوم على جدران معابد الأقصر قد خرجوا من تلك الجدران ووقفوا أمامى على المسرح». ويقول «أى شعب مثل هذا يحافظ على شكله وسلوكه وجيناته الوراثية كل

هذا التاريخ، لابد أنه شعب عظيم». يقول السفير السوفيتى فى بحثه عن أصول المصريين، إن سكان وادى النيل كانوا يبتلعون أى حضارة قادمة وأى ثقافة قادمة عليهم لأنهم أصحاب الحضارة الأقوى، وجيناتهم هى الأقوى. الكل يذوب فى هذا المصنع العجيب الذى أخرج شعبا من أعظم شعوب الأرض. ويقول لا تجد على وجه الأرض شعبا يحب ويتعايش مع الحيوانات مثل الفلاح المصرى، بل تجد أن الحيوان فى منزلة الابن عند صاحبه، وهم يعيشون ويتعايشون لخلق حياة كلها هدوء وحب وتناغم لصنع حضارة لا تنتهى إلى الأبد.

قام عدد من الباحثين اليهود بأخذ عينات طبية (جينية وراثية) من عدد من شعوب الأرض حتى يحددوا أى من تلك الشعوب هى الأكثر نقاء من حيث الجينات الوراثية والاختلاط بين الفرد والآخر، فكانت المفاجأة أن اليهود نسبة نقاوتهم الجينية لا تزيد عن ٧٠٪، ولا يختلفون كثيرا عن باقى شعوب العالم، بل تتماثل مع من يعيشون معهم، وكان ظنهم أنهم قد يكونون أكثر شعوب الأرض نقاء، لكون دينهم يمنعهم من الزواج من غير اليهودى، ونرفع لهؤلاء الباحثين القبعة حين أعلنوا بكل حيدة أن الشعب الوحيد الذى تزيد نقاوة دمه وجيناته عن ٩٥٪ هو الشعب المصرى. وحديثا قامت الأمريكية مارجريت كاندل مع فريق بحث كامل سنة ١٩٩٤ وعلى مدى ٥ سنوات وحتى سنة ١٩٩٩ لدراسة الضفائر الجينية لليهود فى عدة دول من دول العالم، فوجدت أن اليهودى فى ألمانيا يتماثل فى الضفائر الجينية مع الألمانى غير اليهودى، والروسى اليهودى متماثل مع الروسى غير اليهودى، واليهودى الأمريكى مثل الأمريكيين غير اليهود، وهكذا. وأخذت كاندل

عينات من المصريين من أسوان وحتى الأسكندرية ومن الكفور والنجوع المصرية ومن عيادات بعض الأطباء المصريين. ووصلت إلى نتائج أذهلتها بأن هناك تماثلا بين كل المصريين بنسبة ٩٧ ٪، لا فرق بين ساكن المدينة وساكن القرية، أو بين المسلم والمسيحى، أو أى مصرى من ديانات أخرى، ووصلت إلى أن الشعب المصرى شعب واحد له مواصفات جينية واحدة، ليس شعبا مختلطا مثل باقى الشعوب، فهو شعب واحد من الناحية التاريخية، منذ عصر الأسرات الفرعونية وحتى وقتنا هذا، وهو شعب واحد من الناحية البيولوجية. تحقق فى هذا البحث ما قاله العالم البريطانى «إستيان» إن المشكلة فى مصر ليس فى غزوها بل فى الوصول إلى أهلها، فنادرا ما تجد أى شعب متماثل فى كل شىء مثل هذا الشعب، متماثل فى صفاته الخارجية والجينية الوراثية وكأنهم من أسرة واحدة. ويقول المؤرخ الإنجليزى «فلاندريس بيترى» بالرغم من الغزوات الكثيرة التى مرت على مصر إلا أنه لم يكن التغيير فى الجنس بقدر التغيير فى الحكام فقط.

إن شعب مصر يختلف كثيرا عن غيره من شعوب الأرض، ونحن مؤهلون أن نكون فى الريادة ونقود العالم، أو أن نقع فى جب من التخلف القاسى. بالحساب نجد أن مصر قادت العالم أكثر من ٥ آلاف سنة، ولا يمكن أن يعادل هذا الرقم أى شعب آخر، أو أى حضارة أخرى. مصر أعظم بلد فى الأرض بالتاريخ والجغرافيا والحساب وإنما أيضا بالعلم. فهل قام العلم الحالى بفك رموز التحنيط فى الحضارة الفرعونية؟، الفراعنة حنطوا موتاهم لتبقى لآلاف السنين تتحدى الزمن ومازالت تتحدى السنين. لا أنسى يوم نزول رمسيس الثانى مطار أورلى بباريس وتم عمل المراسم التى

تتم للملوك وعزفت الموسيقى السلام الوطنى ورفعت الأعلام لومياء هذا الملك العظيم. أى عِلم حالى أمكنه بناء المعجزة العلمية المسماة بأهرامات الجيزة وسقارة ومعابد الأقصر ومعابد فيلة ومعابد أبو سمبل وغيرهم. وأى علم حالى استطاع التقدم فى الطب والهندسة وعلوم الفضاء والكون مثل العلم المصرى القديم بشهادة كل سكان الكرة الأرضية. وسوف يثبت العلم الحديث أن الفراعين العظام قد غزوا الفضاء ووصلوا إلى القمر وقد نقلوا حضارتهم إلى هناك، وهناك إرهاصات لهذا الكشف الآن، الذى نتوقع أن يجدوا على سطح القمر آثارا لغزاة مصريين وسوف يكون هذا هو الكشف الذى يجبر العالم أن يقدر الحضارة المصرية التقدير الحقيقى.

مصر أعظم بلاد الأرض بالتاريخ والجعرافيا والحساب والعلم وأيضا أعظم بلاد الأرض بالفن. وكيف لا ومصر تحوى ٤٠٪ من أثار وفنون الكرة الأرضية.نحن أول من زين ميادين مدنه بالتماثيل والمسلات، وأول من نقش على الحجر وعلى البردى. ناهيك عن فن المعمار وهندسته منذ فجر التاريخ حتى فى عصور الانحطاط كان فن العمارة له رونقه. والديانات كان لمصر فيها الباع الأول، ولا أنسى قول أحد الشيوخ نحن المصريين من أقام للمساجد مأذنة، وقول آخر إن من لا يمضى رمضان فى مصر لا يعرف كيف أنه شهر رائع لاحتفاء المصريين به. ولا ننسى الدولة الفاطمية وتأثير القاهرة على العالم الإسلامى أجمع. فضلا عن المسيحية التى بزغت من هذه الأرض الطاهرة، وكذا اليهودية التى عبرت أيضا من تلك الأرض المقدسة.

آن لمصر أن تعود لها ريادتها فى كل المجالات، آن لرجال الظلام ومن لا يعلمون مكانة وقيمة تلك البلد العظيم أن يتنحوا جانبا، وأن تترك

الساحة لرجال ذوى همة وعزيمة لريادة مصر للعالم من جديد. وآن لرجال يحكمهم الخوف أن يتركوا لنا الخيار إما أن نخاف مثلهم أونحب لنبنى. لا يمكن أن يولد الخوف حبا، فكل شىء تخافه أنت بالقطع تكرهه.

ويمكن أن نتساءل وهل كل هذا الحب والإطراء لأرض وتراب هذا الوطن نوعا من العنصرية؟ أليست العنصرية بغيضة وتساعد على إذكاء الفتن والحروب. نعم ممكن أن تكون عنصرية فعلا، ولكن كلها حقائق والتاريخ لا ينكر، ونحن فى عصور الانحطاط، جاءت لتقوى العزيمة، وتثبت النفس. ولو كنا ذكرناها ونحن فى أوج قوتنا لكان نوعا من العنصرية التى تذكى العنف.

ويمكن أن نسأل، ألا يوجد شىء فى تلك الأرض باق من تلك الحضارة العظيمة وكيف انتهت تلك الإمبراطوريات المتكررة إلى هذا الوضع الحالى المذل؟! ونجد الجواب فى كل بقاع الأرض: لهم لآثارهم الحديثة؛ أحمد شوقى وطه حسين ونجيب محفوظ وأم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وغيرهم، ممن وقف التاريخ والبشرية احتراما لهم. فى أحد ميادين روما بإيطاليا تمثال أحمد شوقى ويقابله تمثال لعمر الخيام يحكى شيئا من تاريخنا الحديث الذى لم يقدر التخلف حتى يومنا هذا على دحره. وتقف أيضا فى أعظم ميادين روما المسلة الفرعونية معلنة أن حضارتنا كانت أعظم الحضارات.

لا أنسى فى يوغسلافيا (قبل التقسيم) أن طلب منى الأصدقاء هناك أغانى أم كلثوم، والمسلمون منهم طلب شرائط القرآن الكريم للشيخ عبد الباسط عبد الصمد. أم كلثوم أعظم سيمفونية عزفتها البشرية

حتى الآن. خرجت فى نهايات القرن التاسع عشر من أغوار الريف لتقول للكرة الأرضية، أرضنا مازالت بكرا تنبت الدرر تلو الدرر. رغم كيد التخلف والجهل الجاثم منذ سنين. ويظل مشعل أم كلثوم مضيئا رغم مرور السنين، ليحكى أنبل قصة، وأسمى شعور عرفته البشرية. من إحدى قرى مصر الفقيرة خرجت أم كلثوم لتكون سيدة الغناء العربى لتوحد هذه الشعوب فى الخميس الأول من أول كل شهر، ليستمعوا إليها من المحيط إلى الخليج.

ومن حوارى القاهرة خرجت روايات نجيب محفوظ لتبهر العالم. تهتز الأرض تحت وطأة صدقها وجمالها. لن أنسى أن دعانى صديق نيجيرى فى بيت من بيوت مدينته «كانو» بنيجيريا وقال أنت دخلت التاريخ بدخولك هذا البيت. هل تعلم أن الزعيم جمال عبدالناصر قد دخل هذا البيت ونام فيه. واستطرد قائلا أرسل لنا طائرات وجيش لدحر قوى الظلام فى نيجيريا. وهم ممتنون له حتى يومنا هذا. ولا ننكر أن حركات التحرر فى العالم أجمع كانت تقتدى بثورة يوليو ١٩٥٢، وكان ناصر عونا لهم، رغم أنه كان عبئا على اقتصادنا. إلا أن مصر كانت المحراب لكل متحررى العالم؛ وهى التى أنشأت مع يوغوسلافيا والهند مجموعة عدم الانحياز التى كانت تناطح القوة العظمى فى الغرب بزعامة أمريكا، والقوة العظمى الأخرى فى الشرق بزعامة الاتحاد السوفيتى (سابقا). ولا ننسى أعظم فنان عالمى عمر الشريف وكذا علماء مصر فى الخارج مثل مجدى يعقوب وأحمد زويل وفاروق الباز وآخرون كثيرون.

مازالت أرض مصر، ورغم كل هذا التغييب والانهيار. تخرج أعظم نساء ورجالات الأرض.

المرأة والوطن

إن المرأة أساس أى مجتمع إنسانى وهى التى تحافظ على اللبنة الأولى فى الوطن وهى الأسرة، وأى ظلم أو تهميش لها تكون نتائجه المباشرة تخلف هذا الوطن. ابن رشد أحد الفلاسفة العرب فى القرن الثانى عشر الميلادية يرى أن السبب الأساسى فى سقوط الحضارة الأندلسية هو تهميش دور المرأة وتهميش العلم، وتقليص الحريات فى هذا المجتمع. ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) من أهم فلاسفة الإسلام وصحح لعلماء وفلاسفة سابقين له كابن سينا والفارابى فهم بعض نظريات أفلاطون وأرسطو. قدمه ابن طفيل لأبى يعقوب خليفة الموحدين فعينه طبيبا له ثم قاضيا فى قرطبة. تولّى ابن رشد منصب القضاء فى أشبيلية، وأقبل على تفسير آثار أرسطو. تعرض ابن رشد فى آخر حياته لمحنة حيث اتهمه علماء الأندلس والمعارضين له بالكفر والإلحاد، وتم إبعاده إلى مراكش وتوفى فيها سنة ١١٩٨. كان ابن رشد يرى أنه لا تعارض بين الدين والفلسفة، ولكن هناك بالتأكيد طرقا أخرى يمكن من خلالها الوصول لنفس الحقيقة المنشودة وليس بالدين والفلسفة فقط ولكن بالعلم. إنه كان يُقدّر دور العلم ودور المرأة فى المجتمع منذ القدم وهما الجناحان اللذان تقوم عليهما الحضارة الغربية اليوم وبدونهما لا نجد إلا مجتمعا مهمشا مثل مجتمعاتنا الحالية. كان ابن رشد يؤمن بسرمدية الكون ويقول بأن الروح منقسمة إلى قسمين، القسم الأول شخصى يتعلق بالشخص والقسم الثانى فيه من الإلهية ما فيه. وبما أن الروح الشخصية قابلة للفناء، فإن كل الناس على مستوى واحد يتقاسمون هذه الروح، وروح إلهية مشابهة. ويدعى ابن رشد أن لديه نوعين من معرفة الحقيقة،

الأولى معرفة الحقيقة استنادا على الدين المعتمد على العقيدة وبالتالى لا يمكن إخضاعها للتمحيص والتدقيق والفهم الشامل، والمعرفة الثانية للحقيقة هى الفلسفة، والتى ذكر بأن عدد من النخبويين الذين يحظون بملكات فكرية عالية توعدوا بحفظها وإجراء دراسات جديدة فلسفية. أما العلم فيجب أن يأخذ دوره الريادى فى تطور المجتمعات. انطلق ابن رشد فى آرائه وخاصة الأخلاقية من مذهبَى أرسطو وأفلاطون، فقد اتفق مع أفلاطون أن الفضائل الأساسية الأربع هى الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة، لكنه اختلف عنه بتأكيده أن فضيلتى العفة والعدالة عامتان لكافة أجزاء الدولة ومتمثلتان فى الحكماء والحراس والصناع، وهذه الفضائل كلها توجد من أجل السعادة النظرية، التى هى المعرفة العلمية الفلسفية، المقصورة على «الخاصة». وقد قَصَرَ الخلود على عقل البشرية الجمعى الذى يغتنى ويتطور من جيل إلى آخر. وقد كان لهذا القول الأخير دورٌ كبير فى تطور الفكر المتحرّر فى أوروبا فى العصور الوسطى. وأكد ابن رشد على أن الفضيلة لا تتم إلا فى المجتمع الحر. وأناط ابن رشد بالمرأة وقيامها بدور حاسم فى رسم ملامح الأجيال القادمة، فألحّ على ضرورة إصلاح دورها الاجتماعى فى إنجاب الأطفال والخدمة المنزلية. وقد قال بعض الباحثين: لقد تساءل الفيلسوف ابن رشد فى القرن الثانى عشر الميلادى وهو يعاين انطفاء آخر أنوار الحضارة العربية التى سمت فى الشرق الأوسط وأسبانيا إلى ذرى شاهقة عما إذا لم يكن هذا الانحطاط يرجع جزئيا على الأقل إلى الوضع الذى حبست فيه المرأة، وإلى انتباذها خارج الحياة الاجتماعية. ولقد كان من انتباذ المرأة خارج الحياة الاجتماعية لأى مجتمع هى البداية لانحدار كل مجتمع

لأن نصف هذا المجتمع يكون مهمشا وعالة عليه ناهيك عن كون المرأة لها الدور الرئيس فى رسم ملامح الأجيال القادمة.

تعريف العامة للأخلاق عند أهل الغرب هو التفانى فى العمل، واحترام المجتمع الذى يعيش فيه الفرد. واحترام الغير والتسامح مع الآخرين. ويرى أهل الشرق أن الأخلاق هى قيود على الحرية الشخصية. إن محاولة إثبات أن المرأة فى المجتمع الشرقى لا تتمتع بكامل حريتها حفاظا على أخلاق المجتمع هو ظلم للمرأة، فالمرأة لا تخرج من بيتها إلا بإذن من الرجل. مع العلم أن الرجل يمكن أن يخرج بدون إذن المرأة. والمرأة ليس لها الحق فى العمل إلا بموافقة الزوج أو الرجل المسؤول عنها. المرأة ليس لها الحق فى السفر خارج البلاد إلا بموافقة الزوج. إلى آخره من الممنوعات على المرأة وكأنها حبيسة أوامر الرجل. من وجهة نظر رجل الشرق أو على الأقل الغالبية منهم أن المرأة ليس لها الحقوق إلا أن تلد ويمارس معها كل أنواع التهميش.

من ناحية المجتمع ككل فالمشكلة أكبر. فمثلا المجتمع يتدخل فى كل شئون المرأة حتى فى اختيار ملبسها، بل يمتنع على المرأة التحدث فى الشارع مع غريب، حتى وإن كانا من أهل مدينة واحدة. بل يمكن أن يتحول النقاش بين الرجل والمرأة إلى فضيحة لهذه المرأة. ناهيك عن حق المرأة المادى والإجحاف الذى تتعرض له. مع أن الأمان المالى فى خريف عمر المرأة هو الضامن الوحيد من غدر الرجل وإمكانية إلقائها على قارعة الطريق لأنها غالبا ما تكون قد فقدت الجمال والأهل والخلان. والغريب فى الأمر أن يستريح اليمين لذلك، ولا يدافع عن المرأة، مع تأكده من أنها مظلومة، بل يدعى أنها سعيدة بذلك لأنها

تنفذ أوامر الرجل الأول أو المعلم الأكبر أو السلف الصالح الذين كانوا لا يخطئون بل نحن – فى هذا القرن وفى هذه الحضارة – الخطاؤن.

تلك الأفكار كانت منتشرة أيضا فى المجتمعات الغربية أثناء العصور الوسطى. فكانت هناك أسر محافظة تمنع حتى على المرأة تلقى العلم فى المدارس مع أقرانها، وكانت هناك أسر تأتى بالمعلم إلى المنزل لتعليم البنات. وفى انجلترا مثلا كانت تسمى تلك الأسر نفسها بالأسر الفكتورية. ولكن المرأة أخذت حقوقها الآن فى الغرب كاملة. رغم أنها احتفظت لنفسها ببعض القيود القليلة، مثل التمييز فى الملبس عن الرجال أحيانا. أو فى استخدام بعض أنواع الزينة، ورغم ذلك تجد أن هناك رجالا يزاحمون النساء فى أوروبا هذا السلوك، كنوع من التمرد على السائد. الفيلسوفة الفرنسية سيمون دى بوفوار «Simone de Beauvoir» فى كتابها «الجنس الآخر» تقول «إن المرأة لا تولد أنثى بالمعنى التداولى النمطى للكلمة. لكن المجتمع يجعلها كذلك».

إن المرأة والرجل هما الوجهان الأساسيان لاستمرار الحياة على الأرض. وممكن أن تكون المرأة أكثر أهمية من الرجل لاستمرار الجنس البشرى والحياة، بل هى عصب أى مجتمع. والرجل هو عامل مساعد لاستمرار الحياة. الرجل له قيمة متساوية مع المرأة فى تطور المجتمع. بل إن المرأة هى الأهم إنتاجيا واقتصاديا. الرجل على مر التاريخ هو مشعل فتيل الحروب والخراب. والمرأة هى مصدر التحضر والنمو فى أى مجتمع. ولا ننسى عملية إعادة بناء ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية وبعد أن فقدت أكثر من ٢٠ مليون رجل فى الحرب. قامت المرأة بالبناء وقامت بكل الأعمال التى كانت تسمى ذكورية أكثر.

وبكفاءة نحسدها عليها، ونحسد ألمانيا الآن على ما وصلت إليه من تقدم بفضل عمل المرأة.

المرأة ورغم كل الظلم الواقع عليها فى مجتمعاتنا، إلا أنها تتسامح وتقول من يخرج الحياة من بطنها ومن أحشائها هو صاحب الكلمة العليا فى الحياة. إن المرأة وهى فى طور الحمل والولادة هى التى تعمر الأرض، فإن ولدت ذكرا فليس أمامها إلا أن تحبه، ولذلك نجد أن المرأة فى المجتمعات اليمينية تكون أحيانا متساهلة فى حقوقها لعلمها أن هذا الرجل الذى يسلبها حق الحياة والمتعة ويفرض عليها هذا السجن كان فى أحشاء امرأة من نفس جنسها وحملته وتحّملته، ونظرا لجهله ورعونته يمكن أن تتنازل المرأة ليس ضعفا ولكن لاستمرار الحياة، وكفى البشرية حربا لأن المرأة داعية للسلام أكثر من الرجل على مر التاريخ.

فى المجتمعات اليمينية تكون المرأة هى المحرك الحقيقى للمجتمع ورغم ذلك يسلب منها جميع حقوقها الإنسانية، وهى حرية الملبس والمأكل والتعليم والعمل والسفر، فهل سلب حرية السفر من إنسان إلا عبودية من سالب هذا الحق؟! وهل سلب حرية العمل إلا عبودية المرأة لسالب هذا الحق؟! المرأة هى التى تعتنى بالبيت رغم أنها تعمل فى المجتمع مثلها مثل الرجل، وهى التى تربى الأولاد رغم أن الرجل مشترك فى وجود هؤلاء الأطفال. والمرأة فى المجتمع الريفى اليمينى تقريبا هى التى تنفق على المنزل فهى تعمل وتصلح الأرض وتربى الطيور والحيوانات فى المنزل وتخدمها وهى التى تعد المأكولات، بل هى التى تصنع حياة الفلاح الذى لا يشارك فى العمل إلا فى الزرع أو الحرث، وهى أعمال موسمية وليست يومية كعمل المرأة. المرأة هى عماد المنزل

وهـى أيضا عماد المجتمع، وبدونها تتحول الحياة إلى جحيم، رغم هذا يسـمح المجتمع اليمينى للرجل بأن يذل ويهزم المرأة، ومفروض عليها أن تسـمع أوامر الرجل فى أخص خصوصياتها وليس لها حق حتى فى الاعتراض.

مـن ضمن الظلـم الواقع علـى المرأة بصورة شـائعة فـى الأرياف والمجتمعات البدوية موضوع أن السـبب فى كون الطفل ذكرا أو أنثى يعـود إلى المـرأة، ولكن العلم قد أثبت بالدليـل القاطع أن تحديد نوع الجنين يرجع إلى الأب بصورة كاملة، فالجهاز الوراثى لكل فرد، وهو ما يعرف بالجينوم البشرى، يوجد فى نواة كل خلية من خلايا الجسم، ويتألف الجينوم البشـرى من ثلاثة وعشرين زوجا من الكروموسومات فى جميع الخلايا الجسـدية Somatic Cells وهى ذات عدد محدد وثابت لكل كائن حىّ، أما فى الخلايا التناسـلية (حيوانات السـائل المنوى والبويضات فى الإنسـان) فتحتوى دائما على نصف هذا العدد، لذا فعنـد تلقيح الحيوان المنوى للبويضة فـى عملية التخصيب تتكون الخليـة الملقحـة كاملة من ٢٣ زوجا، نصفه مشـتق مـن الأب، وهى كرموسـومات الأب، والنصف الآخر مشـتق من الأم، وكروموسومات تلك الخلية التى تحوى ٢٣ زوجا منها كروموسـوم واحد مسـؤول عن نـوع جنس الجنين، إن كان ذكـرا أو أنثى، ففى الأنثى يكون (XX) أمـا فى الذكر يكون (XY) لذا فـإن هذا الزوج هو الذى يحدد الجنس إن كان ذكـرا أو أنثـى وهو يأتى من الرجـل ولا يأتى من الأنثى. بل يتحدد خصائص الطفل وما هى الصفات التى يمكن أن يكون قد ورثها من والديه، ومستقبله الوراثى بالكامل.

ويمارس الرجل كل أشكال التنكيل والاستعباد للمرأة. وهو يعلم أن كل الحجج التى يسوقها لتركيع المرأة ما هى إلا موروثات بالية قديمة. وهى ليست إلا حلقة من حلقات التخلف. أو هى عبارة عن بعض العادات والتقاليد البالية فى مجتمعات العصور الوسطى. والتى عفا عليها الزمن. والتى يحاول هؤلاء إيقاظها الآن لدحر المجتمع المتحضر.

أحيانا تكون بعض العادات والتقاليد المتوطنة فى مجتمع ما إما خاطئة أو بالية وتساعد على التخلف، وفى بعض الأحيان يفطن المجتمع ويتخلى عنها للتغلب على مشاكله. حتى الحيوانات أو الأسماك تتنازل عن تلك العادات والتقاليد وتضطر لتغييرها لحماية نفسها. ففى مطلع هذا القرن كانت تذهب آلاف السفن من حول العالم إلى خليج المكسيك لصيد الحيتان لاستخراج الزيت من أجسامها. ويستغل الصيادون عادات متوارثة عند هذه الحيتان وهى التكاثر فى هذا الخليج الدافىء فى موسم معين كل عام. ويتحول الخليج إلى دماء، إلى حد أنه يصف أحد الصيادين تلك المذبحة بأن دماء الحيتان فى الخليج تكون أكثر من ماء الخليج ذاته. إنها جريمة كانت تتم سنويا بدون أى رحمة من أجل براميل زيت الحوت الغالية. وفكرت الحيتان بعد سنوات طويلة من الذبح أن يتخلوا عن هذا الخليج الدافىء الذى يساعد على التكاثر، وتركوا الخليج وتركوا أفضل حضّانة طبيعية فى العالم لتكاثر الحيتان. وقد لا يتكاثرون كما كان فى الخليج، ولكن فطن الحيتان إلى هذه المصيدة والتى تعودوا عليها منذ ملايين السنين. وتوقفت المذبحة. فهل سوف يفطن أهل بلدى إلى ما فطن الحيتان إليه بتغيير عاداتهم وتقاليدهم البالية والتى تجعلهم مصيدة سهلة للصيادين؟ أم هل سوف نظل نتعاطى

العادات والتقاليد البالية التى تجعلنا مصيدة للجهل والتخلف. لكم فى الحيتان مثال يا أولى الألباب.

ويبقى الإنسان الحر والخير والتفاؤل إلى نهاية الأرض كما تخبرنا مسيرة التاريخ ويندحر إنسان الشر مهما طال له البقاء.

الاختلاف والمواطنة

من القضايا التى دائما يثيرها اليمين المغالى هى قضية العنصرية وتعميقها بين بنى البشر، ويعتبرون أن هذا هو الخنجر المضمون والنافذ الذى سوف يضرب – الضربة الأخيرة – الحضارة البشرية الدنيوية، أو كما يسمونها الحضارة الغربية، فليس هناك أقوى من قضايا العنصرية فى إثارة الكراهية بين بنى البشر، وكانت على مر العصور مصدرا رئيسيا فى الصراع البشرى، لكن الغريب فى مسار التاريخ أن كل حرب يكون سببها العنصرية، يكون من نواتجها عودة الإنسان بقوة للحياة، بل يستخدم مخزون الخير فى البناء، والبناء السريع لما تم هدمه ليحدث تطوير غير مسبوق فى حياة البشرية عقب كل حرب. فكرة العنصرية فيها تناقض حيث إن كل قوم يعتبرون أنفسهم هم الأحق فى السيطرة على الدنيا بل والسيطرة أيضا على الآخرة. رغم أن التدين الظاهرى من أهم مقومات هؤلاء العنصريين من البشر، ولا يعترفون أن الناس جميعا سواسية خلقهم الله أحرارا، فكيف يفضل الإله الواحد الأحد بعض من خلقه على غيرهم لكونهم يسلكون سلوكا معينا أو يتبعون دينا معينا.

الفكر الظلامى، وباسم الفضيلة والأخلاق أيضا، يفرق بين أبناء الأمة الواحدة، بأن يحاول إثبات أن من حق من ينتمون إلى دين معين. يجب أن يفرضوا سيطرتهم لكونهم الأغلبية. فى مثل هذه الحالات تحاول

الأقلية أن تنزوى أو تهاجر. وبذلك تتحول الأقلية إلى شعبين نصفهم فى المهجر والنصف الآخر فى وطنهم. وهناك أسر كثيرة تجد أن أكثر من نصف أعضائها بالمهجر والباقى فى بلده يندب حظه، ومحروم من رؤية أبنائه أو التمتع بصحبتهم فى أرذل العمر. المجتمع لم يدع بديلا لهم إلا الهجرة مع أن من يهاجر هم خيرة شباب هذا المجتمع، وأحسن من تعلموا وأنفقت عليهم الأمة بالكامل، وقد تسلحوا بالعلم والخبرة، وفى آخر المطاف نتركهم للمهجر. إن هجرة هؤلاء الشباب الواعد المتعلم ما هى إلا خسارة لكل مواطن بغض النظر عن انتمائه، فالمواطن فقد ابنه ليس غرقا ولكن مغتربا لا يراه إلا كل عام أو مرة كل عدة أعوام، والمواطن العادى قد فقد عاملا ماهرا ممكن أن يطور حياة الأمة ككل، بكل طوائفها المختلفة ودياناتها المختلفة.

يجب أن تلغى من الدساتير ما يفرق بين أبناء الأمة الواحدة. إن الدستور الأمريكى صنع دولة عظمى لكونه لا يفرق بين شعبه بسبب العرق أو الجنس أو الدين، ويضمن الحقوق لكل أبنائه بالتساوى دون تفرقة، ويضمن الحرية كاملة للاعتقاد وممارسة الطقوس. فى رحلة أمريكا للتحرر والتوحد قاد إبراهام لينكولن حربا لتوحيد أمريكا وصياغة جديدة لدستور حر وقال جملته الشهيرة «حرب أهلية لحقوق مدنية Civil war for civil rights». ولكننا الآن لا نحتاج لحرب لضمان حقوق جميع المواطنين. التواؤم أصبح ضرورة، خاصة فى العلم والتقدم. إن المشكلة تكمن فى دستور يضعه بعض من المغرضين ليفرض نموذج البداوة والتخلف على نظام الحكم، دستور لا يعترف بأن الدولة لها ثلاثة روافد هى: أرض وشعب ونظام حكم، وليس نظام حكم فقط، أو شعبا فقط. إن الدولة هى كل من الشعب والأرض والسلطات (تشريعية

وتنفيذية وقضائية). إنه من الظلم أن يهمش جزء من الشعب فى الدستور بسبب دينه أو جنسه (ذكر أو أنثى) أو معتقده السياسى.

يجب أن يكون لمصر دستور مدنى متوازن يقر بحق المواطنة لجميع طوائف الشعب ويحافظ على حرية وحقوق وواجبات وكرامة المصريين فى وطنهم وخارج وطنهم، ولا يفرق بينهم بسبب الجنس أو اللون أو الدين، أويظلم ذوى العاهات والمرضى بكل نوعياتها، أو يجور على حقهم فى الحرية والحقوق. إن الدساتير المصرية السابقة ومنذ دستور ١٩٢٣، وفى مواد كثيرة منها يدعو إلى العنصرية والتمييز بين فئات الشعب الواحد، ويلغى بل ينسف حق المواطنة من أساسه. ففى إحدى مواده تقول «الإسلام دين الدولة» والتى ابتدعها الشيخ محمد بخيت فى دستور ١٩٢٣ وكان ذلك خوفا من المد الشيوعى وحزبه الوليد فى مصر، وكان ذلك بإيعاز من الإنجليز الذين كانوا يحاربون الشيوعية، ويرون فى الرأسمالية الإسلامية سندا لهم. البداية كانت خطأ لأن الدين نزل للبشر لم ينزل على الجماد و مصر غالبية سكانها مسلم. ومصر نفسها الأرض والوطن ليس له دين لأنه جماد. ولماذا نشعر المصريين أنهم ضيوف إذا كان دينهم غير الإسلام. الدستور لكل المصريين ولا يفرق بين أى مصرى بسبب اللون أو الجنس أو الدين أو العمر. وفى دستور سنة ١٩٧١ زيدت على النص «مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع». يمكن أن تكون قوانين تطبيق الشريعة فرض على كل مصرى مسلم،وليس على أى مصرى غير مسلم، يوضع ذلك فى قوانين وليس فى الدستور. وتطبق تلك القوانين على فئة من الشعب الراغبين فى تطبيقها. ومن لا يرغب يمكنه أن يغير دينه أو يظل بدون دين كما ضمن ذلك القرآن الكريم لكل

البشر ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] الدستور لكل المصريين، ويجب أن يقر حرية الإنسان فى اعتقاده. إن اختيار تشريع سماوى دون غيره ليكون المصدر الرئيسى للتشريع به لمحة انحياز للأغلبية يجب أن لا تكون فى دستور أرضى له صلاحيات محدودة المدة ولا يساوى بين الجميع فى بلد واحد، وهذا لا ينصف الدين فى حد ذاته لأن الدين أكبر وأعظم من كل دساتير الدنيا، ولن يزيد الدين أو ينقص منه شيئا أن يكتب فى دستور دولة ما أو لا يكتب هذا. فالدين كونى وليس حكرا على دولة بعينها. إن اختيار تشريع سماوى دون غيره لا يصح أن يكون لدولة متعددة الديانات أو الثقافات بل يصح أن يكون سمة لبعض الشعوب والتى غالبيتهم من دين واحد. ويكون ذلك فى إطار التقارب والتفاهم بينهم. من الظلم أيضا. أن يكتب فى شهادة ميلاد المواطن الخاصة بها الدين الذى يدين به، لينتقل من بطاقته إلى حياته كلها. وكأن الدولة تقول له أنت هكذا ويجب أن تكون متشددا وأن نعاملك على أساسه فى تلك البلد. يجب أن يكون الدستور للجميع ويساوى بين الجميع، ولا يضع أى قيود على أى فرد فى المجتمع. أى تفاوت فى الحقوق والواجبات بين أبناء الوطن الواحد فى الدستور يكون بمثابة الموافقة على قيام حروب أهلية. فإما أن يرضخ الأقلية لحكم الأغلبية، أو نطالبهم بهجرة بلدهم أو العيش قهرا فيه دون التمتع بكامل حقوقهم، أو يحاربون دفاعا من أجل حقوقهم المدنية وبالتالى تبدأ الحروب الأهلية بين فئات الشعب الواحد. الغريب أن مواد الدساتير المصرية تفرق بين بنى الوطن الواحد، والغريب أنه كلما وضع دستور جديد كانت

(١) سورة الكهف الآية ٢٩.

فيــه قيود أكثر، وكأن المجتمع يزداد تخلفــا بمرور الوقت، عكس كل الشــعوب الأخرى التى تتقدم يوما بعــد يوم. إذا أرادت أن تعرف مدى تخلف أى شــعب اقرأ دســتوره. فكلما قيد الحريات فيــه، كلما كان هذا الشــعب متخلفا. نحن أول شعوب الأرض التى عرفت معنى الدولة المدنية منذ ســبعة آلاف عام. وأول من أقــام مجتمعا مدنيا. ونحن من علم البشرية الحضارة، فلا أقل من أن يكون لنا دستور مدنى ديمقراطى يحافظ على كرامة وحقوق متساوية للجميع.

جميع المواطنين متســاوون فى كل الحقوق والواجبات، والدين شــىء خاص بالشخص نفسه دون غيره، وهو المسؤول عنه أمام ربه. وليس أمام محاكــم الدولة. فالمجتمع ليس مســؤولا عن الدين وكذلــك الدولة المدنية غير مســؤولة عن تطبيق شــرائع الدين بالقوة. المجتمع والدولة مسؤولون عــن توفير حياة كريمة لكل فرد من أفراد المجتمع، وعن تعليم جيد وعن رعاية صحية جيدة وعن عمل مناســب وعن مســكن مناســب وعن شوارع وطرق جيدة. ليست الدولة مسؤولة عن تطبيق تعاليم الدين. وليست الدولة أو المجتمع مســؤولا عن علاقة المواطن بالله الواحــد الأحد. فهذه علاقة لا يحاسب عليها إلا الله، إن كان مؤمنا صالحا أو غير صالح، والله يعاقب إن كان مذنبــا أو غير مذنب، بل من مشــيئته تعالى أن يســامح البشــر. بل يغفر الذنوب جميعا إلا الشرك به. فما دخل الدولة فى ذلك؟!

ألا يعتبر ذلك تخليا من الحاكم وصانعى القوانين عن دورهم الحقيقى فى توفير العمل والمأكل والملبس والعدل الاجتماعى والمســكن والشــوارع المناســبة والحياة الكريمة للمجتمع لكل أفــراده. بحجة تطبيق قوانين دين معين. إن الحكومة بقوانينها ومحاكمها إنما تحول المجتمع إلى فئة

ظالمة لفئة أخرى، وذلك هو الذى يضعف الدولة، فكل من هو مضار من تلك القوانين ليس أمامه إلا أن يهاجر بعد أن يحمل من الوطن القديم ما يمكن أن يحمله من علم ومال وخبرة وتعليم وتاريخ، أو أن يحارب من أجل حريته.

إن التاريخ سوف يحاكم رجال الدين لأنهم تركوا دينهم، وأخذوا فى الصراع على السلطة. وهم كانوا من أهم أسباب الصراعات بين الشعب الواحد والشعوب المختلفة، بل تحول الدين فى معتقدهم إلى وسيلة للوصول إلى الحكم أو لأى هدف ليس إلا، أو محاولة الحصول على الأموال باسم الدين، أو سرقة بلد بأسره باسم الدين، أو تعذيب البشر باسم الدين. أحيانا يكون الدين هو وسيلة للوصول إلى أهداف بعينها، قد تكون خبيثة، والدين منها براء. ولكن هناك رجال وهناك كلام لإصباغ الصفة الدينية على جشعهم وطمعهم. وكأن الجشع والطمع هما اللذان يتحكمان فى سلوكهم وليس الدين بالطبع، وذلك من أجل تحقيق مصالحهم الشخصية، لأن تحقيق المصالح بالعمل صعب بل صعب جدا، وهم لا يتحملونه، إما بالفهلوة، أو بالكلام وهذا سهل جدا.

يجب أن تتحلى الدولة – بدستورها وقوانينها – بالعدالة بين كل مواطنى هذه الدولة وليست بالتمييز بينهم، غير ذلك يساعد فى هدم اقتصاد تلك الدولة بل فى فنائها، وتوليد طابور ثان وثالث ورابع داخل شبكة الدولة، ويكون المواطنون متعطشين للحرية، مهما كان الثمن. إذا كان الثمن الغربة يتجرعونها صاغرين، وإذا كان الثمن هو الرعب فليقفل كل واحد منهم بألف قفل وترباس على نفسه وعلى أسرته من الخوف، وبدلا من أن يعمل وينتج ويكون عنصرا بناءً فى الأمة، يكون

عنصرا قلقا وسلبيا. وكل مشاكله تتركز فى تأمين نفسه والحفاظ على أمنه وإبعاد الخوف عنه، إلى أن يقتنع أنه لا أمل إلا فى الهجرة. فهل هذا يصح فى القرن الواحد والعشرين، والذى أصبحت فيه دبة النملة مسموعة فى كل أرجاء العالم.

إن الدولة التى تحاول أن تفرق بين رعاياها إنما هى دولة تريد لنفسها الفشل والانهيار، وتريد أن تحارب نفسها بنفسها. فتميز فئة من المجتمع بسبب الأصل، ليس له معنى إلا إثارة الفتن والحرب بين طوائف الشعب الواحد، وبذلك يضعف نظام الحكم ويضعف الاقتصاد. فمثلا فى حالتنا، وأمام سمع وبصر الجميع قد هاجر أكثر من ٥ ملايين إلى خارج بلدهم وهم جميعا من خيرة الشباب، لو قدر لأى بلد آخر أن يهاجر منها مثل هذا العدد من القادرين على العمل لانهارت تلك البلد فى وقت قصير. هذه النسبة كبيرة جدا، ولا تساعد المجتمع إلا على الانهيار والاضمحلال، وهذا هو العار والخراب للاقتصاد بصورة خاصة، لأن شيوع فكر معين دون غيره فى مجتمع يحول أعضاء المجتمع إلى عبيد لهذه الأفكار، والعبيد ليس عندهم قدرة على الإنتاج أو الإبداع إلا بالسيف. لذا فإن الدولة من هذا النوع تكتفى بأن تعامل البشر بقوة السيف أو بسلطان الشرطة الموالية للنظام، وهى الوسيلة الوحيدة للحفاظ على قدر ضعيف من الإنتاج وقدر أضعف من الأمن والأمان. إن الهروب البشرى من تلك المجتمعات يعتبر هو الهدف لأبنائه. إن المحاولات اليومية لهروب العشرات بل المئات من أبناء هذا الوطن عن طريق البحر إلى الدول المجاورة رغم هول التجربة وتعرضهم للموت أثناء هذا الهروب لهو دليل على ذلك، لأنهم يطلبون الحرية فى المقام الأول، يطلبون حياة

كريمة فى المقام الثانى. تقول الروائية والشاعرة الإنجليزية فرجينيا وولف فى كتاب «غرفة تخص المرء» «إنه لمن البغيض أن يسجن المرء داخل غرفة، ولكم ما هو أسوأ، ربما، أن يحرم من دخول غرفة مغلقة». فالحرية هى المطلب الأول للبشر، و كما قال الفيلسوف الألمانى نيتشه «الحرية لا تؤخذ ولا تعطى، الحرية لا تنال بالأقوال».

من المقلق وضع دستور يكبل البشر، صنعه أناس غير معنيين بصالح الوطن بقدر اعتنائهم بأفكارهم الموروثة أو تلك الأفكار التى تنتمى إلى فصيل خارج الوطن يريد فرض سيطرته، أو إعلاء جنس معين. مع أن فى بلادنا رجالات لهم همة وشأن كبير وغير مغيبين حضاريا، ويمكنهم وضع دستور متسق، يمكن الدولة من أن تصلح من حالها فى مدة لا تجاوز خمس سنوات فقط، نعم فى خمس سنوات يمكن خلالها أن تتحول بلادنا إلى جنة. إن بلادنا من أغنى بلاد الأرض، ولنا أن نسأل هل حكامنا لا يريدون لنا الرخاء، ولا يردون لنا الحياة الكريمة؟! وما هى الفائدة التى تعود عليهم من إبعاد أصحاب الرأى السديد؟! هؤلاء الرجال دائما يهمش رأيهم بل أحيانا يودِعونهم تحت الحراسة أو السجن.

سرت نغمة تقول أن المواطنة حقٌ متساوٍ للجميع، وكأنها اكتشاف جديد. ولكن حين تم تعديل دستور ١٩٧١ ذكرت كلمة مواطنة فقط، وتم التعديل أو التغيير بعد ذلك، ولم يعط الحكام أى مرونة فى تغيير الدستور لتطبيق تلك المواطنة المزعومة وهذه المساواة المزعومة. إن هذا ليس إلا مقدمة للانهيار، وتاريخ مصر الحديث والقديم ملىء بمثل تلك الفترات القاسية، مثل حكم الهكسوس أيام العصور الفرعونية

وهـم بدو رحل ورعاع قادمون من الشـرق واحتلالهم مصر لمدة تزيد عن قرن ونصف. ولم تسـلم مصر وتعود إمبراطورية لها قدرها إلا على أيدى رجـال عظماء تكاتفـوا وخرجوا لحروب طويلة لتحريـر مصر من هؤلاء الرعاع القادمين من الشرق. وبدأت الأسرة الثامنة عشرة من أسر الفراعنة العظماء لتبدأ رحلة النجاح المصرى من جديد. ولو كان قد انتبه المصريون من رجالات الدولة فى الأسرة الرابعة عشر للخطر القادم من الشرق الذى يتسـرب كالعنكبوت قطرة قطرة وجزءا جـزءا إلى أن يحول الدولة كلها إلى الأسـر والمهانة. لما كانت مصر وهنـت لهذه الدرجة فى الفترة التى تلت احتلال الهكسـوس الرعاع. فهل نحن بصدد هكسـوس جدد آت من الشـرق أيضا؟. مثال آخر لذلك الانحطاط هو فترة حكم المماليك وهم أيضا أتوا من الشرق، وانهارت مصر لسنوات، إلى أن جاءت أسرة قوية هى أسرة محمد على وحاولت بناء إمبراطورية مصرية على أساس قومى قائمة على أساس مدنى ومتطلعة للحضارة والحداثة. فكانت إمبراطورية عظيمـة قصيرة العمـر وضحاياها كانوا أكثر، بسـبب الهوة التى كانت تفصل بين طبقات الشـعب الواحد ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا. وقامت دولـة مسـتقلة بتوجه ليبرالى فـى مصر منذ ١٩٢٢ وحتـى قيام حركة الجيش فى سنة ١٩٥٢.

بدايات التغيير

هنـاك نقطة تحول جوهريـة فى تاريخ البشـرية الحديثة وهى فترة الحرب العالمية الثانية، بعد تلك الحرب تبدل حال البشـر فى كل بقاع الأرض ما عدا منطقتنـا وبعض المناطق الأخرى المعدودة حول العالم. من المعلوم أن الحرب العالمية الثانية هى أكبر نزاع دولى مدمّر على مر العصور حيث بدأ فى يوليو ١٩٣٧ فى أسيا بغزو اليابان لكل من الصين وكوريا، وبعدها بحوالى عامين وفى أول سبتمبر ١٩٣٩ بدأت فى أوروبا بغزو ألمانيا لكل من بولندا وتشكوسـلوفاكيا، وأعلنت فرنسا وبريطانيا ومستعمراتها الحرب على ألمانيا. اشـترك فى تلك الحرب جيوش نحو سـبعين دولة شـاركت فى معارك جوية وبحرية وبرية. تعدّ الحرب العالميّة الثانية من الحروب الشموليّة، وأكثرها كُلفة فى تاريخ البشرية لاتساع رقعة الحرب وتعدّد مسـارح المعارك والجبهات، شارك فيها مئات الملايين من الجنود والخسـائر فى الأرواح كانت بالغة، وصلت إلى حوالى ٦١ مليون شخص بين عسكرى ومدنى. أضف إلى ذلك المذابح التى ارتكبها الجيش اليابانى بحق الشّـعبين الصينى والكورى إلى قائمة الضحايا المدنيين ليرتفع عدد الضحايا المدنيين والجنود بما يعادل ٢٪ من تعداد سـكان العالم فى تلك الفترة. اسـتطاعت ألمانيا خلال الحرب عن طريق مجموعة من الحملات والمعاهدات السـيطرة على معظـم أجزاء أوروبا بين أواخر سـنة ١٩٣٩ وأوائل سنة ١٩٤١. وفى يونيو من سنة ١٩٤١ قامت دول المحور بقيادة

ألمانيا بغزو الاتحاد السوفيتي وهي أكبر عملية حربية في التاريخ، استهلك هذا الغزو معظم قوة المحور العسكرية. وفي ديسمبر ١٩٤١ هاجمت اليابان الولايات المتحدة الأمريكية في بيرل هاربر مما دفع بها إلى ساحة الحرب. بدأ المحور في الانهزام في عام ١٩٤٢ بعد هزيمة اليابان في عدة معارك بحرية وهزيمة قوات المحور الأوروبي في شمال أفريقيا وستالنجراد. وفي سنة ١٩٤٣ وبعد عدة هزائم لحقت بالألمان في أوروبا الشرقية وغزو قوات التحالف لإيطاليا وانتصارات الأمريكيين في المحيط الهادئ، بدأ المحور في الانسحاب على جميع الجبهات. في ١٩٤٤ وصل الحلفاء إلى فرنسا، واستطاع الاتحاد السوفيتي استعادة كل الأراضي التي استولى عليها الألمان. انتهت الحرب في أوروبا بأن سيطرت قوات الاتحاد السوفيتي على العاصمة الألمانية برلين والاستسلام غير المشروط من قبل الألمان في ٨ مايو سنة ١٩٤٥ كما ضربت الولايات المتحدة الأمريكية البحرية اليابانية وأصبحت جزر اليابان مهددة فضلا عن استخدام القنبلة الذرية لأول مرة في الحروب على مدينتي هيروشيما وناجازاكي اليابانيتن في أغسطس ١٩٤٥ مما ترك تدميرا شاملا ورعبا غير مسبوق، حتى يومنا هذا.

كانت الحرب العالمية الثانية تجربة مريرة، وقد أُهينت فيها الإنسانية بشكل مروع، ووصل الجوع والفقر إلى ذروته، وخيم الدمار والخراب على العالم. في تلك الفترة تم تخليق وتغيير نمط حياة جديد للبشرية، وتم صهر البشرية لتخرج كإنسان جديد بعد تلك المعاناة، بل يمكن أن نسميه إعادة نشأة البشرية من جديد وبحلم جديد. البشرية بعد الحرب العالمية الثانية قد نضجت وأصبحت أكثر إنسانية.

بل يمكن أن نقول فى هذا التاريخ بدأت البشرية الحياة الإنسانية الحقة وقبل ذلك كانت إرهاصات لهذا الميلاد. وكأن البشرية دخلت فرنا عاليا يشبه فرن صهر الحديد وخرجت منه بنموذج بشرى جديد له مواصفات إنسانية جديدة، فقد تعلم البشر من ويلات تلك الحرب معنى الإنسانية، ومعنى احترام إنسانية الإنسان، والحفاظ على حياته. وممتلكاته وحقوقه فى الحرية والتعلم والمسكن والمأكل والتنقل. وحريته فى تحقيق آماله، واحترام تطلعاته. إن كارثة الحرب العالمية الثانية والدمار الذى خلفته فى العالم جعل البشر أكثر تسامحا وأكثر حبا، وأقل عنصرية وأقل تعصبا، وتجلى ذلك فى معاهدات الصلح بين الشعوب بعد تلك الحرب. ونشأت الأمم المتحدة، وخرجت أهم وثائق البشرية وهى وثيقة حقوق الإنسان وانتهى عصر العبيد إلى الأبد، وغيرها من عناصر النظام العالمى الجديد. الذى يفرض هيمنته على كل بقاع الأرض. وترتضيه كل الشعوب. تلك الفترة لم تأت من فراغ بل أتت بعد مقدمات كثيرة منها ظهور طفرة علمية غير مسبوقة لدرجة أن هناك من يقول أن ما تم إنتاجه من العلم فى أول عشرة سنوات من القرن العشرين قدر ما أنتجته البشرية على طول تاريخها. وظهور نوع من الفلسفة لا يمكن إلا أن نسمية بفلسفة الإنسان الحر القادر على فهم الحقيقة التى أصبحت دانية منه، وتحترم وجوده. وظهرت طفرة فى الفنون العالمية لم تشهدها البشرية من قبل. وقبل كل ذلك ظهور وسائل اتصال وتنقل غير مسبوقة فى التاريخ، حقا إن الثورة الصناعية مهدت لتلك النقلة التكنولوجية. ولكنها كانت نقلة فى الماكينات والتطور العلمى ولم تكن نقلة فى الأخلاق والحرية والإبداع. وبعد الحرب العالمية الثانية اكتملت

المنظومة التكنولوجية مع المنظومة الأخلاقية على مستوى الكرة الأرضية إلا بعض المناطق القليلة المتفرقة ومنها منطقتنا.

إن العولمة أصبحت الآن واقعا، بل إن كل الحروب المحدودة والإقليمية التى ظهرت بعد هذا التاريخ كان الهدف منها حرث الأرض التى لم تتقبل فكرة العولمة بعد، حتى تتقبلها بيسر، مثل الحرب الصربية فى وسط أوروبا، وحرب فيتنام فى آسيا. وأخذت تلك المناطق تدريجيا فى الانضمام للعولمة، إلا فى منطقتنا فقد كانت بعيدة عن كل هذا الصراع ورفضت فكرة العولمة، إلى أن بدأ العالم يتنبه إلى منطقتنا بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ فى أمريكا. وبدأ يخطط العالم لضمها سلما أو حربا إلى المنظومة العالمية وهو يعلم أن ذلك صعب جدا ويتطلب الوقت والجهد والتمويل الكافى، فمن ناحية الوقت فقد أقر الأمريكان أن ذلك ربما يستغرق من ٢٠ إلى ٢٥ سنة.

ولو قُدِّر لنا أن نحسب الفارق بين تخلف منطقتنا، وتقدم العالم ككل قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، لكان الفارق الزمنى قبل تلك الحرب لا يتعدى عشر سنوات فقط. أما بعد الحرب مباشرة تحول الفارق إلى مائة سنة على الأقل من حيث الفكر والهدف والتوجه. وكأن دروس هذه الحرب وويلاتها أعادت صهر البشرية، وأعادت تخليقها من جديد. ولكن هذا الصهر لم يتسن لمنطقتنا أن تتعرض له، ولم يتغير بعد رجالها ونساؤها. رغم أن تلك الحرب وصلت حتى أبوابنا وتذوقنا بعضا من ويلاتها، لكن لم نقع فى فرنها العالى حتى الآن. المشكلة الحالية فى تخلف شعوبنا لا تكمن فقط الآن فى نقل التكنولوجيا، بل المشكلة تكمن فى إمكانية نقل عقول أخرى غير التى نفكر بها، وتسامح أكثر مع

الآخر، ونبذ العنصرية البغيضة، والتى كانت مسيطرة على العالم قبل الحرب العالمية الثانية ومنها منطقتنا، وكانت من أهم أسبابها.

إننا ندعو الباحثين فى الفلسفة والكتاب السياسيين ورجال التاريخ لتفحص تلك الفترة الحرجة من تاريخ البشرية، ومحاولة إفهامنا ماذا حدث، وهل يمكن أن ندخل الآن وحاليا لننصهر وتتحول عقولنا لنكون مثل باقى العالم، وهل يمكن أن يتم هذا بدون حرب شاملة فى منطقتنا. إن ما حدث فى لبنان، أو ما يسميه الغرب باللبننة أثناء الحرب الأهلية، وهى تجربة مليئة بالوحشية فى القتل والتنكيل والتعذيب، وما حدث بعد ذلك فى الجزائر من مذابح مثل ذبح الأطفال الرضع وقتل أمهاتم، أو ذبح أسر بأسرها أو قرى بأسرها، ليس لسبب إلا الاختلاف فى الرأى. إنه شىء محير للبشرية، وقفت حائرة فى فهم بشر من هذا النوع، حتى إنه تعدى بكثير تنكيل النازيين فى أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية. وهل علمتنا الحروب الإقليمية فى منطقتنا التسامح وقبول الآخر، ونبذ العنصرية البغيضة، أم مازالوا مهيئين لحروب أخرى ودمار آخر؟! إن دروس الحرب العالمية الثانية لم تترسب فى منطقتنا، ولم نستفد من تلك التجربة المريرة، لنتواصل مع باقى العالم. لا ننكر أن سكان أسيا لم يتأثروا فورا بهذ التغيير، وقد أخذ ذلك عشرات السنين، ولكنهم تجاوبوا بعد ذلك وأضحوا جزءا من تلك المنظومة العالمية. متى يبدأ التغيير فى منطقتنا، ومتى ينصهر إنساننا ويتم تقويم أفكاره لندخل تحت لواء عالم الإنسان الواحد والكرة الأرضية الواحدة والخير للجميع ونبذ فكرة المؤامرة الدولية؟

وللتدليـل على أن الفارق قبل الحرب العالمية الثانية بيننا وبين العالم المتحضـر لم يكـن كبيرا لابد أن نبحث تلك الفترة فـى مصر. فمصر منذ عهد محمد على وهى دولة حضارية لها مؤسساتها الثابتة وجيشها المنظم وكانت تبنى السدود وتقيم المدن وتضنع حضارة. ومصر كانت دولة ليبرالية متحضرة بعذ ذلك، منذ إلغاء الحماية البريطانية عليها فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وحتـى ثورة الجيش المصرى فى يوليـو ١٩٥٢. وكانت إرهاصات تلك الدولة الليبرالية قد بدأت قبلها فى ثورة الشـعب المصرى فى مارس ١٩١٩، حيث واكبها نشاط تجارى بعد أن أسس طلعت حرب بنك مصر. وواكب هـذا إبداع أدبى وفنى غير محدود وبـدأت المجلات تظهر مثل صدور مجلة الصورة المتحركة سنة ١٩٢٣ ومجلة روز اليوسف سنة ١٩٢٦ وكانت قبلها ظهرت جريدة الأهرام فى سنة ١٨٧٥. وبدأت نهضة الدولة المدنية الليبرالية حيث انطلقت بعد عودة سعد زغلول من المنفى فى مارس ١٩٢١، وإلغـاء الحماية البريطانية بعد ذلك. ومـن ضمن مظاهر الحرية إنشـاء حزب الوفد سـنة ١٩١٨ وترأس الحكومة المصرية سـنة ١٩٢٤. وتم إنشـاء الحزب الشـيوعى المصرى فى يناير ١٩٢٣، وتأسيس جماعة الإخوان المسـلمين سـنة ١٩٢٨. و تبنت مصر دستورا جديدا، والسلطان فؤاد أصبح ملكا على مصروالسودان فى أبريل ١٩٢٣.

للتدليـل على عظمة تلـك الفترة يمكن أن نتابع تتطـور فن صناعة السـينما حيث تم إنشـاء اسـتوديو مصر وتأسيس مسـرح سيد درويش بالأسـكندرية فـى يونيو ١٩٢١ وإنشـاء «مصر فيلم» سـنة ١٩٢٥. وتم عـرض فيلـم «فى بلاد توت عنخ أمون» أول فيلـم مصرى وثائقى طويل يُصور بأكمله فى مصر فى يوليو سـنة ١٩٢٣. وفى يونيو سنة ١٩٢٥ تم

إنشاء شركة مصر للمسرح والسينما. وفى سنة ١٩٢٧ تم تأسيس غرفة لصناعة السينما فى مصر لتجعل مصر من أكبر الدول صناعة للسنيما على مستوى العالم وتؤثر فى ثقافة المنطقة وتجعل اللهجة المصرية مفهومة فى كل الدول العربية. وفى مارس ١٩٣٠ أنتج فيلم «زينب» لمحمد حسين هيكل أول رواية مصرية يتم إخراجها فى فيلم سينمائى أنتجته شركة رمسيس فيلم. وفى مارس ١٩٣٢ تم انتاج أول فيلم مصرى ناطق باسم «الابن المدلل». وفى نفس السنة تم عرض فيلم «أنشودة الفؤاد». وتتابع فى سنة ١٩٣٣ فيلم «الزواج». وفيلم «الوردة البيضاء» سنة ١٩٣٣ أيضا. وفيلم «رصاصة فى القلب» سنة ١٩٤٢ والذى كان انطلاقة جديدة للسينما. وتتابعت أفلام الفنانة العظيمة أم كلثوم فى الثلاثينيات حتى فيلمها المميز وهو فيلم «عايدة» سنة ١٩٤٢. وظهرت الفنانة فاتن حمامة كطفلة فى فيلم «يوم سعيد» سنة ١٩٤٠. وتم تأسيس نقابة السينمائيين سنة ١٩٤٣ لتكون مصر رائدة فى صناعة هذا الفن الجميل. وفى سنة ١٩٤٦ تم عرض فيلم «أرض النيل» أول فيلم مصرى يُصور بنسختين إنجليزية وفرنسية. وفى نفس العام تم عرض فيلم «دنيا» للمخرج محمد كريم وبطولة راقية ابراهيم وأحمد سالم ليشارك فى مهرجان كان الذى كان يوسف وهبى من أعضاء لجنة التحكيم فيه. وفى سنة ١٩٥٠ يظهر أول فيلم للمخرج المصرى المبدع يوسف شاهين «بابا أمين». وفى نفس العام يظهر أول فيلم مصرى ملون بالكامل باسم «بابا يتزوج» لحسين فوزى وبطولة كمال الشناوى ونعيمة عاكف. لم تكن الفروق بيننا وبين العالم المتقدم تزيد عن عدة سنوات فقط. وبالتأكيد استمر الدفع الذاتى لتلك الصناعة إلى الآن ولكن الريادة كانت فى الماضى.

لم نقع الوقعة الكبرى بعد. ولكن قوى الشر الآن أصبحت مستشرية فى جسد المجتمع بصورة غير مسبوقة. فهل سنقع الوقعة الأخيرة. وبعدها تنتهى كل أحلامنا إلى الأبد. رغم عظمة الشر الآن واستشرائه بصورة غير مسبوقة فى الأراضى المصرية إلا أن حضارة هذا الشعب توجد تحت جلده وسوف تظهر فى أوقات الشدة.

خواطر شخصية ورياح التغيير

وقعت فى يدى أوراق قديمة كنت قد كتبتها فى ديسمبر ١٩٨٢، حين كنت فى رحلة بالمركب من جدانسك ببولندا، لتتوقف فى كوبنهاجن بالدانمرك وتكمل الرحلة إلى أوسلو بالنرويج. وكان سبب زيارتى التى استمرت حوالى الشهر هى زيارة أستاذى القديم فى دراسة الماجستير وهو نرويجى يعمل أستاذا للفيزياء الفلكية بجامعة أوسلو. وكانت تكاليف السكن فى الفنادق باهظة فاقترح أستاذى أن أسكن فى بيته. وهى فيلا فى أجمل بقاع الأرض. وحين عودتى على ظهر المركب أخذت ورقة وكتبت خواطر. وخلاصتها أننى مهما أعمل لن أمتلك مثل أستاذى من قصور أو يخوت نظير عملى كأستاذ جامعى فى مصر. بل اكتشفت أننى لا أملك أى شىء له قيمة حقيقية فقلت «أنا لا أعرف معنى للملكية، موسيقى تخرج من أبواق نحاسية. تجعل كل الأشياء تقريبية. والملكية أيضا تقريبية» ومن شدة الظلم الذى شعرت به قلت «إنى إنسان تجرى فى أعماقى الإنسانية. إنى إنسان أحدث كل الفرحة الإنسانية. أحدث كل الأحزان الأبدية. مخطوطة بخطوط إنسانية. فلتسقط كل الآلام البشرية». الغريب أن تلك الأوراق المكتوب فيها تلك الكلمات منذ حوالى ٣٠ سنة. مازلت أشعر بكل ما فيها من كلمات وكأن الزمن لم يمر.

غير خطوط الزمن والسنين التى راحت دون أن أدرى ويذكر أن أستاذى النرويجى قد توفى فى سنة ٢٠٠٤ بعد أن جاوز عمره التسعين. وقتها كانت رياح التغيير تراوض عقلى، ولتكن فى ثورة على التخلف النابض فى عروقنا.

حين عودتى بالطائرة من مدينة بوسطن بشرق الولايات المتحدة الأمريكية فى يناير ١٩٨٥، وجدت الوقت الكافى لصياغة ما دار فى عقلى طوال فترة إقامتى هناك، وكتبت عدة صفحات ليس فيها خواطر. بل كتبت خطة عمل علمى للسنوات الثلاث التالية آنذاك، على أن أنفذها حين عودتى إلى عملى فى مصر، وطبعا كنت متأثرا بأسلوب العمل فى أمريكا، وأيضا نسيت فارق الإمكانات. وفى الحقيقة كنت أجهل الحال فى مصر تماما لأننى كنت بعيدا لأكثر من خمس سنوات. وحين عودتى حاولت تنفيذ خطتى ولكن أمكننى تنفيذ حوالى ١٠٪ من المفترض عمله بعد مرور السنوات الثلاث. ولكننى لم أحبط كثيرا، لأن مشاكلى كانت فى مصر أكبر من أن ألهث وراء العلم، وكان الصراع على لقمة العيش أولا، أو قل محاولة الهروب من الغرق. لقد جئت بعد رحلة تعليمية وعلمية طويلة مسلحا بأحدث العلوم والتكنولوجيا وكان أملى يتلخص فى النقل والاستفادة من ذلك. لكن الطوفان كان الأقوى، ورجال الظلام كانوا متمكنين ومتربصين. فكان كل همى أن أحاول أن أبقى على قيد الحياة، وهذا فى حد ذاته كان مكسبا كبيرا. من غرائب الأقدار وأنا فى أعرق جامعات العالم (MIT) فإن جامعة القاهرة أعطتنى فرصة شهرا واحدا للعودة من بعثاتى للاستفادة من خبراتى، فذهبت للمسؤول الأمريكى فى عملى وهو أستاذ كبير وسبق

لــه الحصول على جائزة نوبــل فقال لى إن كل جامعــات العالم تتمنى أن يقضــى ابن من أبنائها أكــبر وقت ممكن هنا. فأنت فى أعظم وأكبر مركز بحثى فى العالم. فقلت له سوف أحاول أن أسوى أمورى. وأعود مــرة أخرى بعــد موافقة جامعتى، والحقيقة أننــى لم أنفذ وعدى، لأن الذى حدث بعد وصولى كان أكبر مما يمكن أن يتخيله بشر مثلنا. فتلك كانت طاحونة التخلف تجر المجتمع إلى الخلف، إلى الماضى وليس إلى المســتقبل. كانت كل الأصوات المنادية للســير إلى الأمام أصواتا نشازا، لا تلقى إلا الإهمال أو المقاومة إن كان صاحب تلك الأصوات قويا ويريد التحرك للأمام. لقد تغيرت الكرة الأرضية من حولنا ولا يسعنا إلا السير فى نفس الاتجاه، ولا سبيل آخر.

○○○

خاتمة

تلك الدراسة عن فرقاء العلم والفلسفة ما هي إلا مقارنة بين الأفكار المتباينة وأصحاب النظريات المتباينة، وتطور المجتمعات المتباينة. لإظهار مدى الاختلاف ومدى تطور وتحضر كل فريق وكل مجتمع.

نقر أنه لن تكتمل نظرتنا الشاملة إلى الواقع المصرى إلا بعد تحليله وفهم ثوابته والإيمان بحتمية التغيير. وخاصة بعد هذا الحراك والفوران الشعبي المصرى فى يناير ٢٠١١. الثورة لابد أن تغير العقول والتراث البالى المتمكن فى العقول. مع تغيير الدستور والقوانين والنظم البالية التى تساعد على الانحراف أو تساعد على فرض نظام شبه ديمقراطى لا يأتى إلا بالأقزام مرة أخرى فى سدة الحكم.

على مر العصور لم تقم أى ثورة بتغيير الواقع فقط بل تغيير البشرية كلها، وكانت شاملة فى العقل والواقع والقوانين والدساتير. الثورة الزراعية منذ أكثر من عشرة آلاف سنة غيرت وجه الأرض بأن زرع الإنسان ما يريده فى المكان الذى يريده وأخذ يسيطر على الأرض وينشئ المجتمعات المدنية مثل القرى والمدن. والثورة الصناعية فى أوروبا والتى بدأت فى القرن الثامن والتاسع عشر وتبلورت تماما فى القرن العشرين. كان من نتائجها تحرر الغرب من الحكم الدينى، ومهدت الطريق للتطور التكنولوجى الهائل الآن. رغم إنها لم تغير العقول بالقدر الكافى حتى سنة ١٩٤٥ حيث بدأ التغيير الشامل

بسبب الحرب العالمية الثانية. وكان تأثير تلك الثورة مقصورا على أوروبا وأمريكا وبعض أجزاء من آسيا مثل اليابان. ولكن لم تؤثر على العالم الإسلامى وبعض دول أفريقيا وأمريكا الجنوبية وبعض دول أسيا. وتأثر سكان شرق أوروبا أو سكان الكتلة الشرقية (سابقا) ولم يكن بالمفهوم الكامل للثورة التى تحرر العقول قبل تحرير الصناعة. ومن هنا بدأ التغيير أو دخول باقى سكان المعمورة فى أتون الثورة الصناعية تباعا. فى أفريقيا وخاصة فى جنوبها، وأمريكا الجنوبية بدأت الثورات للدخول فى أتون الثورة الصناعية. وسبقتها دول جنوب شرق آسيا وثورات شعوب شرق أوروبا فى ثمانينيات القرن الماضى، التى حطمت فكرة الحكم الشمولى الديكتاتورى إلى الأبد فى الكتلة الشرقية وفى العالم أجمع، ومهدت تلك الشعوب إلى تغيير عقولها والدخول فى أتون الثورة الصناعية.

ثوراتنا التى تسمى بالربيع العربى، أو كما يسميها الغرب بالخريف الإسلامى، هى ثورات شعبية، وأكاد أجزم أنها سوف تكون مكملة للثورة الصناعية حتى يدخل سكان منطقتنا أتونها وتتغير عقولهم لاستقبال كرة أرضية جديدة موحدة متكاملة مع باقى سكان المعمورة. إنها ثورة سوف تنهى ما يسمى بالحكم الفاشى، إن كان عسكريا أو دينيا، فمكان العسكر الحدود لحمايتها والمساعدة فى أمن وبناء المجتمع، ومكان الدين فى قلوب وعقول المؤمنين والورعين وطلاب العلم وفى المساجد والكنائس، وهو أسمى وأعلى قدرا من مقاعد السلطان، لأن الدين أبدى وثابت القواعد والتعاليم، ومقاعد الحكم متغيرة، وتحكمها المصالح. وحين اكتمال الثورة وخاصة فى منطقتنا سوف تمهد الطريق إلى وحدة الكرة الأرضية والانتهاء

من عصر التأشـيرات وجوازات السفر، لتعلن البشرية مولد العالم الواحد ملك الجميع، وسوف تتولد – بدلا من الحدود – وتنتشر ما تسمى بالمدن الكونية التى تكون أشهر وأقوى من أسماء الدول التابعة لها. مثل أوروبا الآن تجد أن لندن أو باريس أو مدريد وغيرها من المدن أقوى وأشـهر من الدول نفسها، ولكن للآن لم يتم الانفصال الاقتصادى لتلك المدن، ونرشح مدن مثل الأقصر والقاهرة والأسـكندرية وأسـوان وشـرم الشيخ والغردقة لتكـون مدنا كونية تابعة للدولـة المصرية. فأهلا بالعـالم الواحد متعدد الثقافات والسياسـات والأجنـاس والديانات ولا تعلـو كلمة فوق حقوق الإنسـان فى كل مكان فى حياة كريمة ومساواة أمام القانون، والاقتصاد الحر، والتنقل الحر للبشر والسلع والثروة. لقد بدأت بوادر اكتمال الثورة الصناعية.

من بوادر بزوغ هذا العالم الواحد انتخاب رئيس ملون والده مسلم ليقود أمريـكا أعظم حضارات العالم الحالى، بل ويعـاد انتخابه لفترة ثانية، ويقول للعالم بعد نجاحه للمرة الثانية «نحن أعظم شعوب الأرض، ليس لأننا أغنى بلد، أو الأقوى عسكريا، ولكن لأننا أحرار. كل أمريكى حر لا فرق بين أبيض وأسود أو بين رجل وامرأة أو شاذ أو ملحد أو متدين، كلنا أحرار فى بلد حر، لذا نحن أعظم شـعوب الأرض ويحارب الأفراد مـن كل صوب للفوز بجنسـيتنا». تلك هى أمريكا راعيـة توحد العالم متعدد الأجناس والديانات واللغات والحضارات وكلهم شعب واحد.

وفى طريقه للتحرر من الفاشية تسعى منطقتنا جاهدة، لتلحق بالعالم الواحد، عالم حر للإنسان الحر فى كل مكان وكل ثقافة.

المؤلف فى سطور

الأستاذ الدكتور / أحمد عبد الهادى

- أستاذ الفلك والفضاء بكلية العلوم – جامعة القاهرة.
- رئيس الجمعية الإفريقية الشرق أوسطية لعلوم الفضاء فى الاتحاد الدولى الفلكى.
- رئيس قسم تاريخ العلوم فى الاتحاد الدولى لعلوم المغناطيسية الأرضية والفضاء (IAGA).
- رئيس مؤتمرات علمية دولية – حائز على جائزة تبسيط العلوم لسنتى ٢٠٠٤، ٢٠١٢.
- للمؤلف ١٠٥ أبحاث علمية منشورة فى الدوريات العلمية الدولية المتخصصة.
- للمؤلف ١٧ كتابا باللغة العربية فى تبسيط العلوم.
- عضو فى جمعيات واتحادات علمية دولية حول العالم.
- موقع المؤلف http://www.eun.eg/hady

الفهرس

تقديم أ.د/ سميرة سالم..... ٣
تقديم المؤلف..... ٧
١ – فى البدء كان العلم..... ١١
٢ – اختلاف العلماء..... ٢٠
٣ – الصراع بين الخير والشر..... ٣٦
٤ – الاختلاف والوطن..... ٦٤
٥ – بدايات التغيير..... ٨٦
خاتمة..... ٩٦

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ٣٨٥١
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7734-8

١ / ٢٠١٢ / ٤٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)